د. فؤاد زكريا

كم عمر الغضب؟

هيكل وأزمة العقل العربي

شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع
الكويت

كم عمر الغضب ؟
هيكل وازمة العقل العربي

كم عمر الغضب

هيكل وأزمة العقل العربي

د. فؤاد زكريا

الطبعة الاولى

الكويت

١٩٨٣

شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع
ص . ب ٢٤٢٦٧ ت ٢٥٥٣٤٨٩ ــ ٢٥٥٥٩٦٨
الكويت
الطبعة الأولى
أغسطس ١٩٨٣

الفصل الاول

انتقام الارشيف

المحتوى

الفصل الاول

انتقام الارشيف

لن أكون قد اضفت جديدا لو قلت إن هيكل ، في « خريف الغضب » قد قال الكثير . ولكن الجديد الذي أود أن أضيفه هو ان مالم يقله هيكل أهم وأخطر بكثير مما قاله .

لقد أثارت المعلومات الهائلة التي فجّرها هيكل في كتابه ، والتي لم يكن أحد غيره يستطيع أن يصل اليها أو يعبر عنها بمثل هذه الدقة عاصفة عاتية في مصر ، سرعان ما امتدت الى سائر البلاد العربية . كان هيكل هنا يكتب ، لأول مرة ، « بصراحة » ، ولم يكن من العسير على القاريء الواعي أن يدرك أنه تخلى ، في « خريف الغضب » ، عن الأسلوب الدبلوماسي الحذر ، وعن طرق التعبير غير المباشر التي كانت تميزه « صراحاته » في معظم الاحيان . كان هيكل هنا ، لأول مرة ، في مواجهة حقيقية أمام حاكم كان نظامه لايزال، بعد موته ، يحتفظ بالكثير من اعراض الحياة ، بل كانت روحه لاتزال ـ في رأي البعض ـ ترفرف بقوة على معظم جوانب الحياة الرسمية في مصر . وجاءت المواجهة قاسية ، مريرة ، نافذه بضرباتها الى الصميم .

وحين بدأت المعركة الحامية حول الكتاب ، كانت تحمل سمة فريدة يقف أمامها الفكر الواعي حائرا . فقد كانت ، بالنسبة الى الغالبية الساحقة من المصريين ، معركة ضد شبح مجهول . كانت الردود تتوالى ، بعضها مؤيد ومعظمها معارض ، دون أن يكون أحد قد عرف عن موضوع المعركة وأسبابها الا معلومات أولية نقلتها حلقات قليلة جدا من الكتاب وتسربت الى الجمهور قبل أن يصدر قرار المنع . ومع ذلك فقد استمرت المعركة بعد المنع ، وضد هذا الشبح المجهول ، بكل حدتها وعنفوانها . وكانت تلك المعركة ذاتها من أبرز أعراض ذلك المرض الذي عانى منه المصريون مرارا طوال الاعوام الثلاثين الاخيرة : أعنى أن يروا اجهزة اعلامهم تمتشق سيوفها بكل الحماسة والغضب ضد عدو لم تتح لهم فرصة معرفته .

في هذه المعركة كان الاستقطاب واضحا : فقد اعطاها أنصار هيكل وخضومه طابع الصراع بين عهد السادات وعهد عبد الناصر . كان المصفقون المتحمسون لما كتبه هيكل هم أنصار عبد الناصر ، بحيث لم يقتصر إعجابهم بالكتاب على ما حواه من فضائح تمس العهد الساداتي ، بل كان من أهم أسباب ترحيبهم به ما احتواه من دفاع ، صريح تارةً وضمني تارة اخرى ، عن العهد الناصري . ومن جهة اخرى فقد كان الناقدون الناقمون على الكتاب هم ، بلا استثناء تقريبا ، من مؤيدي سياسة السادات ، فلم يقتصروا في هجومهم على تبرير تلك السياسة ، وانما اغتنموا الفرصة لكي يجُروا مقارناتهم

المألوفة بين العهدين ، ويثبتوا (على طريقتهم الخاصة) إلى أي حد تمكن العهد اللاحق من اصلاح ما أفسده العهد السابق .

وهكذا كان هيكل ، في نظر البعض ، شاهد صدق فضح عهدا فاسدا بأدلة لا تنكر ، وكان في نظر البعض الآخر مفتريا على الحق مختلقا للأكاذيب ناشرا للباطل . ولم يكن امام الجمهور الا ان يختار بين هذين الطرفين : فأنت إما مع هيكل ، فتصدق كل ما كتب ، وإما ضده ، فتكذب كل ما قال .

أما كاتب هذه السطور فيؤمن ايمانا راسخا بأن هذا الاستقطاب للجماهير بين ناصريين وساداتيين ، وهذا الاختيار المفروض عليها بين التصديق المطلق والتكذيب المطلق ، ما هو الا مظهر خطير لضيق الافق السياسي الذي فرض نفسه على عقولنا في العقود الاخيرة . فالقضايا الحقيقية التي تثيرها عملية « الفضح » في كتاب هيكل ، لاتؤدي ابدا الى الاختيار بين عهدين ، وانما تؤدي الى القاء ظلال من الشك على مرحلة بأكملها تشمل العهدين معا ، ويمكن ان تشمل غيرهما ايضا . أما الاختيار الآخر بين التصديق والتكذيب فلابد للعقل الواعي أن يتجاوزه . والموقف الذي ادافع عنه هو أن في وسع المرء أن يصدق الكثير جدا مما قاله هيكل ، دون ان يكون مع ذلك مؤيدا لهيكل .

هذا الكلام قد يبدو لغزا غير قابل للفهم ، ولكن المعنى المقصود يظهر بوضوح من مثال بسيط : لو فرضنا ان احد أفراد

عصابـة « المافيا » قد انشـق عن الجماعـة وافشى اسرارهـا للمحقق ، هل سيكون هذا المحقق ملزما ، إذا صدقه فيما ادلى به من معلومات ، بأن يؤيده وينحاز اليه ؟ إنني لا اود أن يؤخذ هذا التشبيه بحرفيته ، ولكن كل ما قصدته منـه هو ان أضرب مثلا لتلك الحالات التي يمكن أن يكون فيها احد طرفي النزاع صادقا ، ومع ذلك لا يستحق التأييد ولا التمجيد . بهذا المعنى الاخير هو الذي يلخص موقفي من كتاب هيكل ، الذي اصدّق الكثير مما احتواه ، وأرحب به لانه قدم اليّ معلومات ما كانـت لتصلني لولا هيكل ، ولكني في الوقت ذاتهِ لا أؤيد صاحبه ولا اشعر بتقدير كبير للبواعث التي دعته الى تأليفه .

ان ما يهمني ، منذ البداية ، هو ان يكون موقفي واضحا كل الوضوح . ولست أطالب القاريء ، منـذ هذه اللحظـة ، بأن يقتنع برأيي ، لان هذا الاقتناع ـ اذا حدث ـ سوف تنسج خيوطه ببطء وتدرج خلال حلقات متتابعة من حديث طويل ، ولكن ما اطالب به وأصرّ عليه هو الا يكون هناك أي لبس في الموقف الذي سأتخذه . فالقضايا الحقيقية التي يثيرها كتاب هيكل هي ، كما قلت ، تلك التي لم يصرح بها ، أو تلك التي تؤدى اليها كتاباته دون أن يقصد . والمشكلة التي تطل علينا من بـين غلافي هذا الكتاب أوسع من أن تكون مشكلة هيكل وحده ، أو السادات وحده ، او عبد الناصر وحده . إنها مشكلة أسلـوب كامـل في الحكم ، كانت القضايا التي اشار اليها هيكل (ببراعة ودقـة) مجرد عرض من اعراضه . وعلى الرغم من أنني سأشير في كثير من

الاحيان الى ماقاله هيكل في « خريف الغضب » فان هدفي الحقيقي ليس التعليق على كتاب او نقد مؤلفه ، بل ان هدفي هو الكشف عن تلك الظروف والاوضاع التي جعلت الكاتب ، والكتاب ، والرؤساء الذين يتحدث عنهم ، على ما هم عليه .

ولكي يزداد موقفي وضوحا ، فإني أود أن أعلن منذ البداية أنني أؤيد هيكل في الكثير مما قال ، ولكنني استنتج من كل ما قاله امورا مختلفة كل الاختلاف ، تجعلني معارضا لاتجاهاته العامة في معظم الاحيان . ولست اود ان يستنتج الساداتيون من معارضتي لاتجاهات هيكل أنني اقف معهم على اي ارض مشتركة ، بل انني ارفض على نحو قاطع اية محاولة منهم لاستغلال انتقاداتي لهيكل من اجل دعم موقفهم . فأنا ، بلا مواربة ، معارض للساداتية بكل قوة . ولكن هذا لايعني انني انحاز الى الطرف الآخر في الاستقطاب السائد في هذه الايام ، بل انني اكتب من منظور اوسع من هذا الاستقطاب بكثير ، ولا أقبل ان يجرّني احد الى طرف من أطرافه .

ان هيكل يقوم في هذا الكتاب بمحاولة مستحيلة ، هي أن يقتطع عهدا من سياقه الكامل ، ويعزله عن سوابقه . وأية نظرة مدققه الى تاريخ العقود الثلاثة الاخيرة في مصر تقنعنا باستحالة فصل قطعة من هذا التاريخ عن مقدماتها الضرورية . فلنسلم منذ البدء بأن لكل نظام في الحكم شكلا ومضمونا . اما المضمون فهو اتجاه السياسات التي يتبعها ، واما الشكل فهو الاسلوب الذي يطبقه من اجل تنفيذ هذه السياسات . واذا كان

من المسلم به ان مضمون العهد الساداتي مختلف اختلافا كبيرا عن مضمون العهد الناصري ، فان من الحقائق التي ينبغي الا تغيب عن الاذهان ان « شكل » الحكم ، اي اسلوبه ، كان متشابها الى حد كبير و بعيد طوال ثورة ٢٣ يوليو ويحمل معظم ملامحه الاصلية حتى اليوم . ولقد تحدث هيكل اساسا عن الاختلاف ـ الذي ينبغي الاعتراف به بين الاتجاهات السياسية عند عبد الناصر والسادات ، ولكنه كاد ان يغفل تماما الحديث عن التشابه بين اسلوب الحكم في كلا العهدين . وفي هذا الجانب الاخير يعد السادات امتدادا لمنهج في الحكم ارست قواعده ثورة ٢٣ يوليو ، ويجوز انه اضاف اليه اجتهاداته « وابتكاراته » الخاصة هنا او هناك ، ولكن جوهر الاسلوب واحد من البداية الى النهاية ـ وأعني به الحكم الفردي الذي يؤمن بحقيقة واحده ، هي ما يعبر عنه الحاكم ، ويقمع كل ما عداها .

وهكذا فإن كل اشارات هيكل الى اخطاء ممارسات الحكم الساداتيه قد تكون صائبه . ولكن الامر الذي يغفله هو ان من المستحيل فصل النتيجة عن السبب ، وان الصورة تكون ناقصة نقصا خطيرا لو اكتفينا بمظهرها الاخير وتجاهلنا امتداداتها السابقة . ويمكن القول إن هيكل كان على حق عندما كشف العيوب الخطيرة للنظام الساداتي . ولكنه كان مقصراً تقصيرا مخلا حين عزل هذا النظام عن سياقه ، ولم ينظر اليه على انه جزء من ظاهرة اوسع منه بكثير ـ مع اعترافنا الكامل بأن هذه الظاهرة بلغت قمتها المأساوية في العهد الساداتي على وجه التحديد.

أما الخطأ الرئيسي الثاني الذي اتسم به موقف هيكل ، والذي يُعد بدون مبالغة عَرضا من اعراض مرض اوسع نطاقا ، فهو انه استثنى نفسه تماما من اللوم وصب اتهاماته على الغير ، وكأنه كان طوال الوقت مشاهدا محايدا ، او ناصحا امينا لا يستمع اليه أحد . ولقد بحثت طوال الصفحات التي قاربت الستمائة في كتاب هيكل ، عن سطر واحد من النقد الذاتي ، فلم اجد . وكان اقصى ما قاله عن نفسه هو انه تصور ان السادات سيفعل كذا او كذا ولكن تصوراته لم تتحقق ، ويكون المعنى الضمني دائما هو ان الخطأ في عدم تحققها يرجع الى ان الطرف الاخر لم يستمع الى نصحه ، أو لم يفعل ما كان هيكل يأمل أن يفعله . وكل من عاش هذه الفترة وتابعها بوعي ، ولم يفقد ذاكرته تحت وطأة الدعايات المتلاحقة التي تتخذ كل يوم موقفا مناقضا لليوم السابق ، يعلم حق العلم ان هيكل كان جزءا لا يتجزأ من معظم الاخطاء التي يعيبها على السادات ، وان دوره قد بلغ ذروة التأثير في سنوات التكوين الاولى ، التي تشكلت فيها معالم السياسة الساداتية الجديدة ، والتي ترجع اليها معظم التطورات اللاحقة . هذه حقيقة لابد ان يثبتها التاريخ على نحو قاطع ، ومع ذلك فان من يبحث عند هيكل عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير او مراجعة النفس او نقد الذات على ممارسات غرست البذرة الاولى والاساسية للشجرة التي نمت معوجة فيما بعد ، سيكون بحثه قد ضاع هباء .

عند هذه النقطة لايملك المرء الا ان يتساءل : ما الذي اتاح لهيكل كل هذه الفرص التي مكنته من ان يوجه نقدا موجعا للعهد الساداتي ، اذا كان هو ذاته قد اعطى هذا العهد ، بجهوده الواعية والمتعمدة ، معالمه الاولى التي حددت قسماته وملامحه لوقت طويل فيما بعد ؟ هنا لايملك المرء الا ان يفكر مليا في قول هيكل ، في مستهل كتابه ، ان فكرة الكتاب قد طرأت على ذهنه منذ اللحظة الاولى لدخوله المعتقل في سبتمبر ١٩٨١ ، ثم قوله في الفصول الاخيرة من الكتاب ، انه لم يكن يتصور ان السادات سيقدم على اعتقاله ، على الرغم من كل ما بينهما من خلافات .

لقد كان لدى هيكل سلاح جبار يخشاه الجميع ، وهذا السلاح هو الذي جعله واثقا من انه لن يعتقل . فلما تجاوز السادات الحد ، في لحظة يأس لم يترك فيها اتجاها من اتجاهات الفكر والسياسة والعقيدة في مصر الا واعتقل اهم ممثليه ، قرر هيكل ان يصوّب الى السادات طلقات سلاحه الجبار : الارشيف .

لقد كان هذا السلاح ، منذ البداية ، نتاجا لظاهرة الحكم الفردي التي ازدهر في ظلها هيكل . فمن خلال صلته الوثيقة بعبد الناصر ، كانت الاسرار والوثائق الخطيرة تأتيه وحده دون غيره ، وكان هو ذاته يحرص على تسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور حوله ، مدركا بذكاء ان كل كلمة تسجل يمكن ان تكون مصدر قوة له في يوم من الايام ولم تكن البراعة الصحفية وحدها ، ولا

الذكاء الشخصي وحده ، هما اللذان اتاحا له هذه الفرص ، بل ان انعـدام الديمقـراطية وسيادة جو التكتـم والقـرار الفـردي المفاجيء ، جعل من الضروري ان يضيق نطاق المطلعـين على الاسرار الى ابعد حد . وهكذا اطلع هيكل على مالم يكن متاحا للآخرين ، أو مطروحا على الناس ، وهداه ذكاؤه الى ان يسجل اولا بأول كل ما هو « خفي » و « ممنوع » . ومنذ ان تبين له أن الناس يتلهفون على قراءة الاسرار التي لايعرفها احد صباح يوم الجمعة ، أدرك هيكل اهمية « سلاح الارشيف » من حيث هو مصدر قوة وحماية له في نفس الوقت .

بل ان احد الكتاب الساداتيين ، ممن كانوا على صلة وثيقة بهيكل[1] ، يذهب الى ان سلاح المعلومات كان يُستخـدم عنـد هيكل في العطاء أيضا . فهو يرى أن من اهم أسبـاب المكانـة الخاصة التي اكتسبها هيكل لدى عبد الناصر ، منذ اول سنوات الثورة ، انه كان يزود زعيم الثورة بقدر هائل من المعلومات التي تتجمع لديه من قراءاته الواسعة ، والتي كان عبد الناصر ـ وهو لايزال ضابطا حديث العهد بالحكم ـ في أشد الحاجـة اليهـا . وهكذا بدأ هيكل بالعطاء ، وفيما بعـد سُدِّدت له هذه الـديون اضعافا مضاعفة ، عن طريق فتـح خزائـن الاسرار كلهـا له . وهكذا كان « سلاح الارشيف » ذا حدين : يعطـي أولا ، ثم يأخذ بعد ذلك بلا حدود .

---

(١) انظر : صلاح منتصر : « الاستاذ هيكل . شاهد ام شريك ؟» الاهرام ـ ١/ ٥/ ١٩٨٣

ولكن ، على الرغم من كل هذه الفرص الاستثنائية التي اتيحت لهيكل وحده ، في ظل اسلوب حكم فردي مطلق ، وكشفت له عن القوة الهائلة التي تكمن في « سلاح الارشيف » ، فان المرء لا يملك الا ان يشعر بوجود سر خفي في تلك المقدرة الهائلة على جمع المعلومات واختزانها واعادة استخدامها واستثمارها في الوقت المناسب . لقد سخر هيكل من الضباط الذين قلبوا بيته الريفي ، وقت اعتقاله الاخير ، بحثا عن اوراقه السياسية ، مؤكدا لهم ان الرئيس ذاته يعلم انه (اي هيكل) لا يحتفظ بشيء من اوراقه في بيته ، وأنه يبعث بها اولا بأول الى خارج البلاد . وهكذا كان الارشيف بالنسبة الى هيكل ، بالاضافة الى كونه مصدر قوة ، تأمينا على الحياة ، وضمانا ضد اي شكل من أشكال الاضطهاد : فهو يحمل معه اسرار الجميع ، بالوثائق ، ويوم يمسه سوء ستعلن هذه الاسرار وتفضح كل شيء ، ومن هنا كان الحرص على ان تظل خارج البلاد . ولكن يظل السؤال قائما : هل يستطيع فرد واحد ، مهما كان ذكاؤه وتشعب قدراته ، ان يجمع كل هذه المعلومات ، ويرتبها بهذه الدقة ، ويبعث بها اولا بأول الى الخارج ؟ لست أدري ، ولكنني كلما امعنت الفكر في هذه الظاهرة بدا لي انها اعقد واوسع نطاقا من امكانات اي فرد ، بل من امكانات اي جهاز في دولة متخلفة ، وخيل اليّ اننا نجد انفسنا هنا على مستوى يكاد يصل لاجهزة المخابرات في الدول الكبرى .

وهكذا فان هيكل عندما وجد نفسه معتقلا ، وحين تبين له

ان السادات تجاوز الحدود وتحدى قدراته ، سلّط عليه أرشيفه الجبار ، وحقق لنفسه انتقامه الشخصي من حاكم كان بيته بالفعل من الزجاج ، وكان متهورا ويائسا عندما اختار هيكل بالذات ليكون واحداً ممن يرميهم بالحجارة.

على ان الامر الملفت للنظر ، والذي تتجلى فيه سخرية الاقدار بحق ، هو ان « سلاح الارشيف » ، مثلما انه مصدر قوة هيكل ، هو ايضا مكمن الضعف فيه . ذلك لان من يستخدم هذا السلاح يستطيع ، بأكثر الامكانات تواضعا ، ان يصيب هيكل في مقتل . ويكفي ان يرجع بانتظام الى قائمة كتاباته في اواخر الاربعينات ، ثم في مختلف مراحل الخمسينات والستينات ، واخيرا في اوائل السبعينات ، ويكفي ان يقارن هذه الكتابات بعضها ببعض ، او بما يظهر منها في المرحلة الراهنة ، لكي يجد لديه مادة هائلة تستخدم ضد هيكل بسهولة تامة . وحسبنا ان نضرب لذلك مثلا واحدا مما نشر في الصحف المصرية اخيرا . فها هو ذا كاتب يتجاسر فيقول : « ان تاريخ الاستاذ محمد حسنين هيكل صفحة سوداء في تاريخ مصر . لقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة اجنبية ، وكتب ذلك في كتابه « كلمتي للتاريخ » ، كما اتهمه مايلز كوبلاند في كتابه : « بغير عباءة او خنجر » بانه كان عميلا مخلصا . كما اتهمه خروشوف بنفس التهمة وذكر له قيمة المبالغ والشيكات التي تسلمها من وكالة المخابرات المركزية ، وكان ذلك عندما سافر سيده (يقصد عبد الناصر) الى روسيا واصطحبه معه في

هذه السفرة ، فلما واجهه نيكيتا خروشوف بهذه الفضيحة المرة اضطر ان يسافر في اليوم التالي عائدا الى مصر .(٢) .

هنا نجد « سلاح الارشيف » يستخدم ضد ابرع من اتقنوا استخدامه . واذا كنا لانملك الحكم على مدى صحة الوقائع الواردة في هذا الكلام ، فان الاتهامات التي تحدث عنها الكاتب قد وجهت بالفعل الى هيكل على ايدي نجيب وكوبلاند وخروشوف ، وكل ما فعله الكاتب هو انه رجع الى الوراء قليلا مقلبا صفحات الجرائد في السنوات الماضية . وما هذا الا مثل واحد يكشف عن الوجه الآخر لسلاح الأرشيف ، عندما يسدد الى عنق صاحبه .

---

(٢) انظر : محمد علي ابو طالب : « اني اتهم ! » ـ الاخبار ٣٠/ ٤/ ١٩٨٣ .

الفصل الثاني

من الذي يشتم مصر

الفصل الثاني

من الذي يشتم مصر

أثار كتاب هيكل ، أو على الأصح الجزء الضئيل الذي نشر منه في مصر ، عاصفة عاتية من ردود الفعل . وفي رأيي أن دراسة ردود الفعل هذه ، باتجاهاتها المختلفة وتشعباتها الكثيرة ، تزودنا بذخيرة هائلة نستطيع من خلال تحليلها المتعمق ، أن نفهم الكثير عن طبيعة التشويه الفكري الذي أصبحت بلادنا تعانيه ، وعن شكل التضليل الإعلامي الذي يسلَّط على عقولنا ليل نهار . ففي ردود الفعل هذه تتحدد مواقف كثيرة وتنكشف وتظهر حقيقة الأفكار التي ظلت كامنة ، مستترة ، مغلفة بشتى انواع الأقنعة الخداعة . ومن خلال ردود الفعل هذه يتضح اتجاه المصالح الحقيقية في مصر ، إذ كان معظم المدافعين عن السادات من المنتفعين منه ، أو من أصحاب المصالح التي ازدهرت في عهده ، وإن لم يمنع ذلك من وجود بعض المتأثرين بطوفان الإعلام . ومن خلالها ينكشف تهافت وتناقض الشخصيات التي كان لها دور مصيري في تاريخ مصر ، ودور أساسي في تشكيل عقلها ، وهو حكم لا أستثني منه هيكل نفسه . ومن

خلالها تظهر للعيان جريمة الحكم الفردي التي لا تغتفر ، إذ يتبين لنا بوضوح مدى التزييف الذي طرأ على الوعي السياسي المصري ، متمثلا عند عدد غير قليل من كبار مثقفيه ، بعد ثلاثين عاما من حكم يفترض أنه ثورة تستهدف ، على وجه التحديد ، تحرير الوعي من أوهامه .

وأخيرا ، فمن خلال ردود الفعل نستطيع أن ندرك إن كان عهد السادات قد انتهى حقا ، أم أن آثاره مازالت تدب فيها الحياة بكل عدوانية وتحفز .

ان دراسة العقل المصري وتحليل سماته كما تتمثل في اتجاهات ردود الفعل على هيكل ، هي في نظري أهم الأهداف . ولم يكن كتاب هيكل في هذه الحالة الا فرصة لكشف أساليب التفكير المستورة ، التي تظل في حالة كتمان حتى تطرأ أزمة أو محنة تفجرها . وهكذا سوف أتوقف طويلا عند ردود الفعل ، وأخضعها لتحليل سأحاول ان يكون دقيقا ، آملا أن أتمكن عن طريقها من القاء الضوء على بعض سمات العقل المصري ـ التي تجمعها روابط مشتركة كثيرة مع العقل العربي بوجه عام ـ بعد ثلاثين سنة من حكم ثورة ٢٣ يوليو .

« هذا الرجل (السادات) قد اخترناه جميعا زعيما لهذا البلد ، واختيار زعيم فيه تجسيد للشعب الذي اختاره ، وبالتالي فان كل ما يقال عن هذا الزعيم يعتبر في حقيقته نيلا من الشعب الذي اختاره » .

قائل هذه الكلمات أستاذ كبير في القانون ، في اجتماع للمجلس الاعلى للصحافة خصص لمناقشة كتاب هيكل ، ونشرته جريدة « الاهرام » في ٢٩ ابريل الماضي . والأساس الذي يبني عليه تفكير أستاذ القانون هو ان الحاكم تجسيده لبلده ، مادامت قد اختارته بارادتها ، ومن ثم فإن أي هجوم من هيكل أو غيره على السادات هو هجوم على مصر كلها .

هذا النوع من التفكير بلغ ، في السنوات الأخيرة ، من الانتشار حدا يحتم علينا أن نتوقف طويلا عنده . فما من أحد منا إلا وتعرض مرارا لتلك التجربة المثيرة والمستفزة ، تجربة المناقشة مع شخص يؤكد أن أي نقد للحاكم هو انتقاص من قدر بلاده ، وأن الوطنية الحقة تحتم على المرء ألا يسيء الى الحكام .

ولا شك أن عبارة أستاذ القانون ، السابقة ، هي تعبير نموذجي عن وجهة النظر هذه :

أ ــ فهو يستخدم لفظ « الزعيم » مرتين ، وهي نفس الكلمة التي كان يطلقها النازيون على هتلر (الفوهرر) والفاشيون على موسوليني (الدوتشي) . وليس هذا استخداما اعتباطيا ، اذ كان يمكنه ان يقول : الحاكم ، او رئيس الدولة ، ولكن إصراره على لفظ « الزعيم » هو جزء لا يتجزأ من العقلية التي توحد على نحو مطلق بين شخص الحاكم وبلده .

ب ــ وهو يرى هذا الـزعيم « تجسيدا » للشعـب ، ولـم يقـل « رمزا » ، لأن الرمز لا يتعين أن يكون مشابها لما يرمز اليه (اللون الأخضر رمز لإمكان مرور السيارات مثـلا) ، بل تفصل بينهما مسافة ما ، أمـا التجسيد فهـو اندمـاج كامل ، بل ان الزعيم يصبح في هذه الحالة « خلاصة » شعبه وأنقى تعبير عنه . وهذا يفترض ، بطبيعة الحال ، أن الشعب كتلة متجانسة لا تمايز فيها ولا اختـلاف ولا تباين في الرأي أو الاتجاه ، حتى يستطيع شخص واحد أن يكون تجسيدا له . ومن هنا فمن المؤكد أن الانجليز ، مثلا ، لا بد أن يسخروا ممن يرى في « تـاتشر » تجسيدا لهم ، إذ أنها حتى لو كانت تجسد المحافظين ، فماذا نقول عن العمال والأحرار ؟ وفضلا عن ذلك فإن الزعيم الذي يجسد شعبه هو ، بحكم تعريفه ، غير قابـل للتغيير ، وإلاّ فكيف نتصور أن يتخلص شعب ممن يجسده ؟

جـ ــ وأخيرا ؛ فإن أستاذ القانون الكبير يتحدث أربع مرات ، في أقـل من ثلاثـة أسطـر ، عن « اختيار » الشعـب للـزعيم . وهـكذا فإنـه ، بكل وقـار القانـون وهيبـة الأستـاذية ، يعلن ثقتـه المطلقـة وتصديقـه الكامـل لاستفتاءات ٩ ,٩٩٪ ، ويرى فيها أساسا يسمح للمـرء بأن يقول باطمئنان تام وبضمير مستريح : « هذا الرجل قد اخترناه جميعا . »

هذه الكوارث أو الفواجع الفكرية تتجمع كلها في اقل من ثلاثة اسطر ، وتعبر بوضوح صارخ عن تدني مستوى الوعي السياسي والاجتماعي عند من يفترض فيهم ان يكونوا معلمين ومرشدين لغيرهم في هذا الميدان ، وهي في واقع الأمر أبلغ دليل على نوع العقول التي توحد بين الحاكم وبلده ، وترفض أي نقد للحاكم بحجة أن هذا النقد إهانة لوطنه ونيل منه .

* * *

على أن لهذا اللون من التفكير ، أعني التوحيد بين الحاكم والوطن ، وجها آخر ربما كان أشد حدة ، هو ذلك الذي يشيع بين المصريين المغتربين على وجه التخصيص . فظروف الاغتراب تزيد من قوة التوحيد بين البلد وحاكمها ، ومن هنا كان من ردود الفعل الأكثر شيوعا ، بين المصريين العاملين في البلاد العربية بوجه خاص ، استنكار ما كتبه هيكل باعتباره « شتيمة لمصر » .

هذه ظاهرة لم تتمثل في حالة هيكل وحده ، بل تعرض لها كل من يكتب كتابة نقدية عن الأوضاع المصرية في احدى الصحف العربية . كما أن من يستخدمون هذه الحجة ليسوا هم المواطنين المغتربين العاديين فحسب ، بل ان المرء يجدها تتردد على أعلى المستويات . وأستطيع ، من تجربتي الشخصية ، أن أؤكد أن النسبة الغالبة من أساتذة الجامعات المصريين العاملين في بلد كالكويت تحتج بشدة على أي مقال يوجه نقدا لحاكم مصر أو حكومتها ، باعتباره هجوما على مصر ، وهكذا فإن شيوع هذه الحجة بين المغتربين يفوق بكثير انتشارها داخل مصر ذاتها ،

ولذا كانت تحتاج الى وقفة متأنية تناقش الأسس التي ترتكز عليها بهدوء .

١ ـ أول أساس لهذه الحجة هو ذلك الذي اوردناه من قبل ، واعني به أن الحاكم تجسيده لبلده . ويزداد الحرص على فكرة التجسيد هذه عندما يكون الشخص مغتربا ، بحيث تتضاعف حساسيته ازاء أي نقد يوجه الى الحاكم . وكم من مصري مغترب ينتقد كتاب هيكل ، على سبيل المثال، انتقادا مريرا ، لا لأنه غير مقتنع بما يتضمنه من وقائع ، بل لأنه ، حتى لو كانت كل كلمة فيه صحيحة ، يسيء الى صورة « مصر » .

إن قليلا من التفكير يقنعنا بأن الحريص حقا على سمعة بلاده هو الذي لا يوحد بينها وبين حاكمها . وفي حالة بلد كمصر يكون من المخجل حقا أن يساوي المرء بين ذلك التاريخ العريق ، والحضارة الأصيلة ، بين بلد النيل والأهرام والأزهر ، وبين تصرفات حكام أفراد يمكن أن يكون الكثيرون منهم مصابين بجنون العظمة أو داء الاستبداد والبطش والادعاء . إن من يعتز ببلده وتاريخه حقا هو ذلك الذي يعلن في كل مكان ، وأمام الجميع ، أن مصر ليست مسئولة عن أخطاء حكامها ، وينزه بلده عن تلك النقائص التي يمكن أن يتصف بها هذا الحاكم أو ذاك . أما ذلك الذي ينصب نفسه محاميا عن كل خطأ

يرتكبه الحاكم ، متوهما أنه يدافع على هذا النحو عن وطنه ، فهو في الواقع الذي يسيء الى هذا الوطن أبلغ إساءة . ولو اتخذت مسألة التوحيد بين الحاكم والوطن قاعدة عامة ، لكان علينا جميعا أن نحمّل بلدا كمصر أخطاء فاروق والخديوي توفيق والحاكم بأمر الله وقراقوش .

٢ ــ ولكن أصحاب هذا الموقف يلجأون ، عادة ، الى إضافة حجة أخرى ، هي الإشارة الى الفارق بين النقد داخل الوطن والنقد خارجه . ففي استطاعتك أن تنقد الأوضاع كما تشاء مادمت في بلدك ، أما إذا كنت في بلد آخر فإن الواجب يقضي عليك بأن تمتنع عن النقد ، بل تتصدى له بكل قوة ، حتى لا تترك « للغرباء » فرصة « الشماتة » في وطنك . ويشارك الحاكم ذاته في هذه الحجة : فهو يهاجم بكل العنف أولئك الذين « يشتمون مصر » في الخارج ، وربما استخدم التعبير المألوف « نشر الغسيل » ، ويجد هذا الرأي صدى لدى الكثيرين ممن يتقبلون ما يقرأونه أو يسمعونه بلا تفكير . ولكن الأمر المؤسف هو أن الأمر لا يقتصر على هؤلاء ، بل إن نسبة كبيرة من المثقفين الذين يشغلون مراكز علمية واجتماعية مرموقة تردد في كل مناسبة هذا المبدأ : « انتقد بلدك في الداخل كما تشاء ، ولكن عليك في الخارج ان تدافع عنها (والمقصود هنا بالطبع : تدافع عن حكامها) بالحق أو بالباطل ، ولا تسمح لأحد

بمهاجمتها (والمقصود : مهاجمة حكامها) .

فلنناقش إذن هذا المبدأ الخطير ، المنتشر على أوسع نطاق بين اوساط المصريين المغتربين على مختلف مستوياتهم :

اولا : هذا المبدأ يفترض أن العرب ، الذين يقيم هؤلاء المصريون في بلادهم ، هم بالنسبة اليهم « غرباء » . والأمر الملفت للنظر حقا هو أن نفس هؤلاء الذين يفكرون بهذا المنطق يمكن ان يتحدثوا باستفاضة ، في مجال آخر ، عن وحدة العروبة والمصير المشترك والحواجز المصطنعة بين الأقطار في الوطن العربي الواحد ، ولا يدركون التناقض الصارخ بين حديثهم المتحمس هذا وبين نظرتهم الى العرب على أنهم « غرباء » لا ينبغي أن تطرح مشاكل مصر الداخلية او الخارجية أمامهم ، ولا ينبغي أن تتاح لهم فرصة « الشماتة » في مصر . فكيف يسمح هؤلاء لانفسهم بأن يكونوا اقليميين الى أقصى حد في جانب ، ووحدويين متحمسين في جانب آخر ؟ أليس من الواضح أن الايمان الحقيقي بوحدة العروبة يحتم على المرء ألا يجد فارقا بين المصري وأي عربي في نقد الممارسات الخاطئة لأي نظام من الأنظمة ، سواء أكان هذا النظام مصريا أم لم يكن ؟

ان العرب ، من غير المصريين ، لا يهتمون بأوضاع مصر من أجل « الشماتة » ، كما يتصور قصار النظر هؤلاء ، بل أن ما يحدث في مصر من مدّ وجزر ، ومن تقدم أو تخلف ، هو الشغل الشاغل لكل عربي لسبب بسيط : هو انه

لابد ، عاجلا أو آجلا ، أن ينعكس على بلاده إيجابا أو سلبا . وما من عربي مستنير إلا ويتابع سياسـة مصر بكل ما يملك من ترقب واهتمام ، لأنه يعلم أن مفتاح المنطقة كلها هناك ، ولأنـه يخشى على بلده من أن يلحقها أي مكروه يصيب مصر قبلها . وهكذا فإن الاهتمام الزائد الذي يبديه اي عربي بأوضاع مصر ، يظل في واقع الأمر اعترافا بمكانة مصر الرئيسية في الوطن العربي ، حتى لو اتخذ شكل انتقاد مرير لأوضاعها . فلماذا لا يبدي احد اهتماما بانتقاد ما يحدث داخل موريتانيا او جيبوتي مثلا ، حتى لو تراكمت الأخطاء ، في ممارسات حكام هذين البلدين ؟

ثانيا : يفترض هذا المبدأ أن فرص النقد مكفولة داخل مصر . ولكن أصحابه يخدعون أنفسهم ، في الواقع ، خداعا مكشوفا حين يتظاهرون بالوطنية فيقولون ، انتقـــــد احكام مصر في داخلها كما تشاء أما في خارجها فلا . . من الذي يستطيع أن ينتقد حكام مصر في داخلها « كما يشاء » ؟ لقد ظل كتاب مصر ومثقفوها الـذين يحملون هموم مصر على اكتافهم يحاورون ويناورون ، لمدة ثلاثين عاما ، كلما وجدوا امامهم ممارسات خاطئة . وكم من نقد كان يمكن ان ينقذ البلاد من كوارث رهيبة ، عوقب موجهه او ارغم على السكوت ، أو اضطر ـ على أحسن الفروض ـ الى التعبير عنه بحذر والتواء حتى يمكن ان يجد طريقه الى الناس وسط الرقابة الصارمة . فلماذا نغالط انفسنا ونتصور أن من ينتقد في الخارج يفعل ذلك طواعية ، وانه كان

يستطيع أن ينقد في الداخل ولكنه اختار ـ لمصالح خاصة ـ منبرا للتعبير خارج بلاده ؟

ثالثا : من الممكن ان يدرك المرء ، حين يعمل فكره قليلا أن معظم أصحاب هذا المبدأ يقومون بعملية اسقاط لخلافاتهم الصغيرة في العمل ، ومنافساتهم الشخصية مع جنسيات عربية اخرى في نطاق العلاقات الفردية الضيقة ، على موقفهم السياسي العام . فكل منهم يتصور أن ظهور نقد للأوضاع المصرية في جريدة صباحية سيجعل زميله أو رئيسه العربي في المكتب أو المصنع يكسب نقطة على حسابه حين يفتح الجريدة ، وينتهز الفرصة للتشفي منه . وهذه نظرة طفولية ضيقة تخلط بين العلاقات الشخصية والشئون الوطنية العامة ، وان كانت للاسف واسعة الانتشار حتى على أعلى المستويات .

إن هذا الخلط بين المستوى الشخصي للسلوك ، وبين تقييم العمل السياسي العام ، هو آفة من أخطر الآفات في تفكيرنا المعاصر ، وهو علامة واضحة على أن تربيتنا السياسية بعيدة كل البعد عن ذلك النضوج الذي لا بد منه لقيام نهضة حقيقية . وسوف تتاح لنا ، خلال معالجتنا لجوانب الموضوع الذي نتناوله في هذه الدراسة ، فرص كثيرة لرؤية أمثلة أخرى لهذا الخلط . ويكفي أن نقول الآن ان الكلام عن « التشفي » او « الشماتة » حين يكون الأمر متعلقا بالسياسة العامة لبلد من البلاد ، هو مظهر للبدائية في التفكير . أما « نشر الغسيل » وهو للأسف تعبير

مازال يستخدمه مسئولون كبار ـ فهو تعبير مضحك ومؤسف في آن واحد ، وليقل لي هواة هذه التعبيرات : هل سمع أحد منكم واحدا من أنصار ريجان أو ميتران يتحدث ، في معرض تقييمه لسياسة بلاده ، عن « الغسيل » ؟

إن الفكرة الكامنة من وراء هذا هي فكرة « الستر » وهي مبدأ اخلاقي مذموم حتى على المستوى الفردي . ففي أخلاقنا الشعبية نزوع شديد الى التغطية على العيوب ، الى درجة أن افتضاح هذه العيوب ومعرفة الآخرين بها هو في نظرنا شرّ يفوق العيوب نفسها . وكثيرا ما نتصرف بحيث نتغاضى عن أخطر انواع الآثام مادامت « مستورة » ، ومن هنا كان « الستر » أمنية غالية في تعبيراتنا الشعبية المألوفة . ولكن الخطأ الفكري والأخلاقي يتضاعف حين ننقل هذا المبدأ الى ميدان السياسة ، فندعو مواطنينا الى السكوت على اوضاع جائرة حتى لا تفتضح أمام الآخرين ، ونطالبهم بألا « ينشروا الغسيل » بدلا من ان نطالب أنفسنا بأن نبقي غسيلنا نظيفا على الدوام .

* * *

وهكذا تكشف لنا ردود الفعل على كتاب هيكل عن أخطاء فكرية فادحة ترسخت في عقولنا وسرت فيها مسرى البديهيات التي لا تناقش، ويتبين لنا أن توحيدنا بين تصرفات الحاكم وبين سمعة بلاده هو ابلغ دليل على ان لعبة الحاكم الفرد لا تقتصر على من يمارسها بنفسه ، بل ان الذين تمارس عليهم هذه اللعبة قد اندمجوا فيها وانتقلت عدواها اليهم دون أن يشعروا ، وان

الخاضع للاضطهاد قد تقمص الكثير من أفكار من يضطهده ، وان الطغيان أصبح جزءا من تكوين المحكوم ، لا الحاكم وحده ، الى حد انه اصبح يوحد نفسه ، وبلده ، وكرامته ومكانته ، مع شخص الحاكم المطلق ، ويقدم بتفكيره الخاص اقوى دعامة لذلك الاستبداد الذي يكتوي بناره ليل نهار .

الفصل الثالث

لعبة الاحياء والاموات

الفصل الثالث

لعبة الاحياء والاموات

حين نمضي في رحلة الكشف عن مظاهر تزييف الوعي وانهيار العقل والمنطق ، كما تمثلت في ردود الفعل على كتاب هيكل ، ستظهر لنا أمثلة أخرى مؤسفة لذلك الخلط الذي أصبح سائدا على كافة الأصعدة ، بين أساليب الناس في التعامل معا على المستوى الشخصي ، وأساليبهم في النظر الى أمور المجتمع العامة ، على المستوى السياسي . ولكنا سنكتشف أيضا أن قدرة المزيفين على الخداع وصلت الى حد من الجرأة ، بل من الصفاقة ، يفوق كل تصور ، وأنهم ما كانوا ليبلغوا هذا المدى لو لم يكونوا قد اعتادوا النظر الى الجمهور على أنه قطيع ينقاد ، بلا عقل ، في أي اتجاه يفرض عليه . وهذا التعالي على الناس ، والاعتقاد بأن أية أكذوبة يمكن أن تمرّ عليهم ، ليس الا النتيجة الطبيعية لجو القهر المخيم منذ أمد بعيد ، والذي أشاعه عهد لا يجعل للجماهير من دور سوى التصفيق والتصديق .

لنستمع الى كاتب كبير كان له يوما دور بارز في الحركة

الوطنية المصرية ، ولكنه انجرف في تيار التضليل السياسي منذ السبعينات ، يعلّق على كتاب هيكل فيقول : « لقد اغتالوا حياته في ٦ اكتوبر ، عيد انتصاره الحربي ، وفي ٢٥ ابريل عيد انتصاره السلمي يحاولون اغتيال سمعته . . اننا نصغر في عيون الآخرين ، ويبدو بعض كتابنا بلا وفاء ، يحركهم الانتقام وتضطرب في أيديهم الموازين . . ان ما كتبه هيكل . . ليس تحليلا ، إنما هو التشهير بعينه ، هو الاعتداء على حرمة رئيس مات . . وعلى سمعة وطن بأسره . . من قال ان كاتب التاريخ من حقه أن يهدر الحرمات ، ويشهّر بسمعة الرجال والنساء بلا دليل ؟ من قال ان كتابة التاريخ تعني العدوان على سمعة الذين هم في ذمة التاريخ ، ومتى كانت كتابة التاريخ تمزيقا للأشلاء ؟ »[١] .

ولنستمع ، بعد ذلك ، الى استاذ مرموق في الطب ، وأمين عام لنقابة الأطباء ، وهو يهاجم الصحيفة التي نشرت مقالات هيكل الأولى قبل أن تصادر ، فيقول : « هذه الصحيفة صدرت في ظل الحريات وقانون الأحزاب التي أرسى قواعدها من أرادوا نهش لحمه حيا وميتا لا لشيء إلا لأنه اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلب امته وأعلن عداءه للشيوعية . . » .

ويواصل الطبيب الكبير كلامه قائلا : « لا اظن ان مصريا لم يتابع جنازة السادات ولم تدمع عيناه ولم يكتو قلبه لوعة

١ ــ عبد الرحمن الشرقاوي . مقال بعنوان « كفى ! » ـ الأهرام ٢٧/ ٤/ ١٩٨٣

وحزنا على النهاية التي أودت بحياة رئيس مصر ورمزها » . . ثم يقول « لقد بلغ به الغضب قمته عندما رأى من مدّ يديه إليهم بالخير وفتح لهم أبواب الحرية وسمح لهم بالتعبير عما يجيش في صدورهم من رأي يمدون اليه أيديهم بالشر وأقلامهم بالقذف »[٢] .

وأخيرا ، يتخيل كاتب لم يشأ ذكر اسمه أن السادات قد تولى الرد على هيكل ، فيتحدث بلسانه قائلا : « كرهت الانسان أن يُنزع مثلي من منامه فأوقفت زوار الفجر ، ومقتّ لآمن انتهاك حرمته فأحرقت أشرطة الأسرار ومنعت التسجيل والتصنت ، وتصديت لشريعة الغاب فأغلقت المعتقلات ، وآمنت بحق الدفاع عن النفس فأعليت سيادة القانون . . واغفروا لي ان كان قد دفعني بعض الابناء الى ما لا يمكن أن يحبه ويرضاه أب لكل الأبناء »[٣] .

نماذج ثلاثة لم أخترها لكي أناقش أصحابها او ارد عليهم ، بل لكي يفتح القارىء عينيه ، من خلالها ، على الانهيار الفكري الذي تولده عهود الانفراد بالسلطة والرأي الواحد . فما هي العيوب الفكرية التي تكشف عنها هذه النماذج ؟

أولا : حين يتحدث النموذج الاول عمن يكتبون بلا وفاء ،

٢ ــ د . أسامة عبد العزيزي . مقال « سقطة الخريف » ـ الأخبار ١٩٨٣/٤/٢٦

٣ ــ مقال بعنوان « معهم كل الحق . . نشأتي عقّدتني » . ١٠ مايو ١٩٨٣ .

فإنه يسقط الاعتبارات الأخلاقية الشخصية على التقييم السياسي ، وكأن المؤرخ ملزم ، من أجل الوفاء للحاكم اذا كان قد أسدى إليه خدمات معينة ، بأن يغمض عينيه عن عيوب هذا الحاكم ويغش جمهوره عندما يصدر حكما عليه . ثم يزداد الخلط والتشويش (الذي لا أظنه كله متعمدا ، بل هو يعبر عن الطريقة التي اصبح يفكر بها الكاتب نفسه) حين يتحدث عن « سمعة الوطن » ، وإهدار الحرمات ، والتشهير بالرجال والنساء . ويصل الضباب الفكري الى ذروته عندما يستخدم الكاتب تعبيرات انشائية لا مجال لها على الاطلاق في السياق الذي يتناوله ، وكل ما تؤدي اليه هو ايجاد جو من التعاطف مع « الضحية » ، أو جو من النفور من « المعتدي » ، مثل « العدوان على سمعة الذين هم في ذمة التاريخ » او « تمزيق الأشلاء » . هكذا أصبح للتاريخ « ذمة » ، وهذه الذمة تحمي الحاكم من أي نقد ، وتجعل من يمس الحكام اللاجئين اليها « ممزقا للأشلاء » !

ثانيا : أما النموذج الثاني فأمره أغرب . إنه يؤكد ببساطة شديدة ان السادات ، حين اعلن عداءه للشيوعية ، إنما اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلبه . وهكذا يقرر الطبيب المرموق ان مطلب الشعب المصري ليس المعيشة الآدمية ولا المواصلات السهلة ولا المسكن المعقول ولا الخبز الضروري ، وإنما هو العداء للشيوعية . ولا يخجل الكاتب من أن ينسب

اللوعة والحزن الى المصريين جميعا في تلك الجنازة التي شهد الأمريكان انفسهم بأنها قوبلت من الشعب بعدم اكتراث كامل .
وأخيرا ، فإن الكاتب ينظر الى الحاكم على انه ولي النعم ، ويصل به تقديس الفرد ، واحتقار الجماهير ، الى حد القول انه هو الذي يمد يديه بالخير ، وهو الذي يفتح ابواب الحرية ، وهو الذي يسمح للناس بالتعبير - ويرى هذا كله وضعا طبيعيا يدافع عنه بحرارة وفي مقابل ذلك فان المعارضين الجاحدين لا يردون على هذا الخير الذي يتصدق عليهم الحاكم به إلا بالشر والقذف .

ان مستوى الوعي السياسي هو الذي يهم في الموضوع كله . فها هو ذا انسان لا بد انه سافر مرارا الى الخارج ، وقرأ ذلك الكم الرهيب من « الشر والقذف » الذي تحتشد به صحف حزب العمال ضد تاتشر ، او صحف الديجوليين ضد ميتران ، ورأى نماذج لا حصر لها للمعارضة القاسية الضارية ، التي تتقبلها الحكومات بكل ترحيب ، ومع ذلك فهو لا يقبل لبلده الا أسوأ نموذج : ذلك الذي يكون فيه الحاكم مانحا للخير ، والمعارض الناقد معتديا أثيما .

أنقول انها عقلية عصر الانفتاح ، منعكسة على ضمائر اقطاب العهد ؟ أنقول ان الطبيب الكبير يدافع عن عهد يتيح له ان يتقاضى عن المريض الواحد ، في كشف يستغرق دقائق قليلة ، مقدار ما يتقاضاه خريج الجامعة الحديث ، اذا عين

موظفا حكوميا ، ليعيش به في شهر كامل ؟ لست ادري ، وكل ما اعرفه هو انها محنة فكرية ، قبل ان تكون ازمة في الضمائر .

ثالثا : واخيرا ، فإن النموذج ، الذي يقدم إلينا حديثا متخيلا بلسان السادات ، يكرر بلا مواربة أفكار النموذج الثاني عن الحاكم من حيث هو « ولي النعم » ، ويقدم مجموعة غريبة من الأحكام لا تصدر الا عن شخص يفترض ان قراءه قد ألغيت عقولهم وحرموا حاسة الفهم : يؤمن بان قارئه قد نسي تماما ان عهد السادات كان فيه ايضا زوار للفجر ، وأن كثيرا من القضايا السياسية قدمت فيه بناء على شهادة اجهزة تجسس وتصنت ، وان سيادة القانون كانت تخرق حتى على مستوى اعضاء مجلس الشعب ، ولكنه يستدرك بعد ذلك فيستخدم لغة « الآباء والابناء » في وصف حركة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ ، ويصور المسألة كما لو كان الأب الحنون ، كبير الأسرة الواحدة ، قد اضطر متألما الى ان يكون صارما مع بعض أبنائه من أجل صالحهم .

إن جرأة الاعلام على التزييف والمغالطة ، حين تصل الى هذا الحد ، فلا بد أن يكون في الأمر كله خطأ فادح . صحيح أن الاعلام في العالم كله يبالغ ، ويخرج عن الحقائق هنا وهناك ، غير أن ثمة حدا ادنى من الاحترام لعقول الناس ـ ولكن هذا الحد الأدنى لا أثر له ، للأسف ، في إعلام عهود الحكم الفردي المطلق ، ومن ثم فان الكاتب يستبيح لنفسه أن يلوي الحقائق

كما يشاء ، مادام يؤمن بأن عقـول النـاس قد الغيت منـذ امـد بعيد .

* * *

ومع هذا كله ، فإن هناك ما هو أفدح وأخطر ، وأعنـي به الحديث المتكرر عن « نبش القبور » ، والسـؤال الـذي أصبـح التفكير السياسي القاصر في هذه الأيام ، يطرحه كما لو كان قضية بالغة الأهمية ، وأعني به : هل ينبغي أن يُنقد الحاكم حيا أم ميتا ؟

لقد رأينا في النماذج الثلاثـة السابقـة اشـارات متـكررة الى استنكار الهجوم على الحاكم بعد موته ، ولكن لا بد لنا أن نقدم نماذج أخرى لهذا الاستنكار ، حتى يدرك القارىء مدى انتشار هذا اللون من التفكير . فالكاتب موسى صبري ، وهو من أكبر الدعاة الساداتيين ، يتحـدث حديثـا طويلا عن « حرمـة الموت والموتى » ، وعـن « نبش القبـور » و« انتهـاك الحرمـات »[٤] . ولكن الاخطر من ذلك بيان نقابة الصحفيين في مصر تعقيبا على كتاب هيكل : « ان ما نشر يعد . . اعتداء على حرمـة الموتـى وتعرضـا لحياتهـم الخاصـة ومخالفـا لتقـاليد المجتمـع الـدينية والأخلاقية » .

ولقد استنكر هيكل ـ وكان على حق في ذلك ـ استخدام رهبة

---

٤ ــ الاخبار في ١٩/ ٤/ ١٩٨٣

الموت وقدسيته من أجل تبرئة الحكام وإبعادهم عن النقد ، فقال : « ومع ذلك فمن المصريين من يطالب بمصادرة حقنا في أن نناقشه ، هل من المعقول أن يأتي كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه في حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟ أهذا معقول ؟ »(٥) هذا كلام رائع بغير شك : فكل من يستنكرون مهاجمة الحكام بعد موتهم إنما يهدفون ، في حقيقة الأمر ، الى مصادرة حق الناس في توجيه أي نقد الى الحاكم ، سواء خلال حياته أو بعد مماته . ذلك لأنهم هم أنفسهم الذين يشاركون في قمع حريات المعارضين والتنكيل بهم واتهامهم بالعمالة والخيانة لو انتقدوا الحاكم حيا ، وهم الذين يتمسحون بالفضيلة والأخلاق وتقاليد المجتمع والدين لو وجدوا من يهاجم الحاكم ميتا . وهكذا فالنقد أثناء الحياة ممنوع ، وبعد الموت عيب وحرام . فهل هذا ـ كما قال هيكل بالضبط ـ معقول ؟

ولكن المهزلة الكبرى تتمثل في أن هيكل نفسه ، الذي يتلفت الآن حواليه ببراءة ويتساءل : أهذا معقول ؟ كان هو نفسه من أهم من استخدموا هذه الحجة المتهافتة ، وكان من اقوى الناس نقدا لمن يهاجمون الحكام بعد موتهم . وهكذا نجد انفسنا ازاء « لا معقول » آخر ، غير ذلك الذي يمثله خصوم هيكل ، هو « لا معقول » هيكل نفسه .

---

٥ ـ حديث هيكل مع صلاح عيسى في « الأهالي » ٢٧/ ٤/ ١٩٨٣

فلنبدأ بتأمل رأي قريب العهد لهيكل . لقد نشرت الصحف ، في مصر والكويت ، الرسالتين المتبادلتين بين توفيق الحكيم وهيكل . فماذا نجد في هاتين الرسالتين بشأن الموضوع الذي نتحدث عنه الآن ؟ قال توفيق الحكيم مخاطبا هيكل : « إن حالتي تشبه حالتك . فأنت كتبت كتاباً « خريف الغضب » اعتبر هجوما ضد السادات بعد موته . وانا كتبت كتابا هو « عودة الوعي » اعتبر هجوما على عبد الناصر بعد موته » . ولكن هيكل يرفض هذا التشبيه بين الكتابين ، ويهمنا في رفضه السبب الثاني الذي قدمه للاختلاف بينهما : « لم اكتب بعد موت احد . كتبت في حياته رأيي ، وكتبت بعد موته نتائج دراستي لما حدث » وهو يؤكد ، في موضع آخر ان الحكيم الف كتابه « بعد ثلاث سنوات من رحيل عبد الناصر » على حين انه هو ذاته نقد السادات منذ فبراير ١٩٧٤ .

علام يدل هذا الحرص على نفي فكرة نقد الحاكم بعد موته ؟ على شيء واحد ، هو أن هيكل يقف على نفس الأرض التي يقف عليها خصومه ، ويفكر بنفس منطقهم ، ويتبنى نفس قيمهم . فالمعنى الضمني لديه هو ان نقد الحاكم بعد موته جبن ، أو عمل غير أخلاقي ، ومن هنا كان حرصه على تأكيد أنه نقد السادات حيا ، ولم ينتظر ثلاث سنوات كما فعل توفيق الحكيم ، وكل ما فعله بعد موت السادات هو انه « كتب نتائج دراسته لما حدث » .

ولكن ، لنترك المعاني المفهومة ضمنا وننتقل الى الكلام الصريح فقد نشر هيكل مقالا بجريدة « الوطن » الكويتية[٦] بعنوان : « ما اكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » ـ وهو في ذاته عنوان بالغ الدلالة ، يتهم فيه هيكل من ينقدون الأموات بالجبن لأنهم لم يمارسوا « شجاعتهم » الا على الغائبين . في هذا المقال يروي لنا هيكل قصة عتابه لعبد الناصر على قيامه باعتقال شخصية من الشخصيات المرتبطة بصحيفة « الاهرام » ، ثم يعلّق قائلا : « لا اسمح لنفسي ان اقص عليك ما قلته له . ذلك الآن تجاوز لا يليق . لو كان حيا واقتضت الظروف ان اروي الحديث كله لرويته . ولكنه لم يعد بيننا . ولهذا لا أستبيح لنفسي ان أدّعي الشجاعة على غائب . ما اكثر الشجاعة هذه الايام على الغائبين . الفئران كلها تعربد في غياب القطط ، ولم يكن جمال عبد الناصر قطا ، وإنما كان أسدا مهيبا وشامخا » .

وهكذا يصف هيكل توجيه النقد للحكام بعد موتهم بأنه عربدة فئران في غياب القطط ، ولا يدري أنه بعد أعوام قلائل من حديثه ذاك ، سيجد بدوره من يشبهه بنفس التشبيه ، بعد أن مارس هو ايضا شجاعته على حاكم غائب . والمفارقة الساخرة أن قائل هذا الكلام هو نفسه الذي يهتف في أيامنا هذه باستنكار : هل من المعقول أن يفعل الحاكم ما يشاء فلا نناقشه في حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟

---

٦ ـ ٣ اكتوبر ١٩٧٩

وهكذا فإنه ، عندما كان الأمر متعلقا بنقد تصرفات لعبد الناصر ، وجد هيكل في مهاجمة الأموات جبنا ، وعندما اصبح متعلقا بالهجوم على السادات ، استنكر عدم مناقشة الحاكم بعد مماته (ولاحظ انه استخدم في هذه الحالة الأخيرة عبارة « كل حاكم » أي أنه كان يصدر حكما منطقيا على جميع الحالات) . هذا التناقض يدل على ان هيكل وخصومه يقفون جميعا على ارض واحدة ، ويؤمنون بمجموعة واحدة من الأفكار الباطلة ، التي ترتكز على نزعة أخلاقية زائفة تخاطب عواطف الناس لا عقولهم . وتخلط بين الموت من حيث هو كارثة انسانية شخصية وبين التقييم السياسي من حيث هو ممارسة لا صلة لها بالموتى والاحياء .

إن الجميع في الوهم والضحالة الفكرية سواء . والكل نشأوا في مناخ سياسي لا يسمح بالموضوعية ولا يترك مجالا للنقاش المنطقي المجرد عن الأهواء . فالساداتيون يقولون : لقد نبشتم قبر السادات . وهنا يرد الناصريون : وأين كنتم عندما نبش قبر عبد الناصر : انتم فئران ! ولكنه حين ينبش هو نفسه قبر السادات ، ويهاجمه خصومه لهذا السبب يتساءل في براءة : هل من المعقول ان يمنعونا عن نقد « كل حاكم » حيا او ميتا ؟

انها أرجوحة شيطانية ، يتراقص فيها الجميع سكارى بخمر الأفكار الزائفة والقيم المضللة ، ويثبتون بها ، على نحو قاطع . طفولية الفكر السياسي بين جميع اطراف اللعبة بعد ثلاثين عاما

من ثورة أعلنت أن هدفها تحرير الفكر وتصحيح مسار القيم .

تظل هناك ، بعد ذلك نقطة واحدة يمكن أن يلجأ اليها هيكل في دفاعه ، وهي ان نقده للسادات بدأ اثناء حياته . هذا صحيح ، ولكن ليقل لي الاستاذ هيكل « بصراحة » : لو كان السادات لا يزال حيا ، أكان يستطيع ان يتكلم عن « ست البرين » وعن « المجعراتي المتسول » وكأس الفودكا الذي يؤخذ بعد كل غذاء ؟ ليجب ، بصراحة ، ايضا : عن هذا السؤال : مادام هو نفسه صاحب منطق القطط والفئران،فأين يضع نفسه ، في هذه النقطة بالذات ، بين هاتين الفئتين ؟

إن المسألة كلها خطأ مركب . فالكلام عن الأحياء والأموات ، والتفرقة بينهم في النقد ، أمر لا معنى له في ظل اي وعي سياسي سليم ، ومبدأ « اذكروا محاسن موتاكم » ينطبق على الأقارب أو الجيران او الشركاء ، ولكنه خارج عن مجال الكتابة التاريخية والسياسية . ولو صح هذا المبدأ في تلك الميادين الأخيرة ، لما استطعنا كتابة التاريخ ، ولكان الموت هو شهادة البراءة لكل حاكم ظالم او فاسق أو طاغية ، ولأصبح كل مؤرخ ، بحكم مهنته ذاتها . نباشا للقبور . ولكن الناس الذين اعتادوا على مدى سنوات طويلة ، أن يحصروا تفكيرهم في شخص الحاكم ، والذين عجزوا عن ان يتصوروا اية حقيقة تتجاوزه ، هم الذين يصبغون السياسة بهذه الصبغة الشخصية ، ويحكمون على تصرفات الحكام مثلما يحكمون على

سلوك « كبار العائلة » ، وينسون المسئوليات الخاصة « لرجل الدولة » ، التي تحتم علينا ان نحاسبه على كل شيء ، وفي اي وقت نشاء .

هذا الذي قلناه ينطبق على الموضوع كله ، من حيث المبدأ ، وفي ظل اي نظام ، حتى النظام الديمقراطي . اما النظام الدكتاتوري ـ الذي تدور في ظله كل مناقشات هيكل وخصومه ـ ففيه يصبح الموقف اوضح . فاذا كان النظام لا يسمح بمناقشة الحاكم اثناء حياته او بعد مماته ، فإن النظام الدكتاتوري لا يسمح بمناقشة الحاكم « الا » بعد وفاته . ومادام النظام الدكتاتوري تحكمه اسود مهيبة وشامخة ، فمن الطبيعي ان يكون هناك على الطرف الآخر ، فئران ـ والا فعلى اي شيء يستأسد الأسود ؟

ان الناقد الذي يهاجم اي حاكم فردي مطلق بعد مماته ، إنما يتصرف تصرفا طبيعيا لا مفر منه . ولو قيل له : إنك خائف ، لكان رده : نعم ، انني لم اتكلم الا الآن لانني كنت خائفا ، ولي كل الحق في أن أخاف . وحتى لو ادعى هيكل الشجاعة فأكد أنه انتقد السادات في حياته ، فان هذه ليست قاعدة يمكن ان تسري على الجميع . فهيكل قد استطاع ان يختلف مع السادات في سنواته الاخيرة علنا لأنه هيكل ، بكل ما يحمله من نفوذ وما لديه من اتصالات عالمية وما يحتفظ به من اسرار تبعث الرعب في قلوب أقوى الأقوياء ـ وهذه كلها

امكانات لا تتوافر لأي كاتب اخر ، حتى لو كان في منزلة توفيق الحكيم . ومع كل ذلك فإن هيكل عندما هاجم الحاكم الفرد في حياته لم يكن يمسه الا مسا رقيقا ، واضطر ـ بكل سلطته ونفوذه وامكاناته ـ ان ينتظر حتى يموت لكي يغوص في الأعماق .

ان القضية كلها ـ اعني الكتابة عن الحكام أحياء أم أمواتا ـ هي في رأينا قضية ما كان ينبغي أن تثار ، وليس الاهتمام المفرط الذي ابداه اطراف النزاع بها الا دليلا على قصور شديد في الوعي السياسي لدى الجميع . والمسألة ببساطة استغلال لعاطفية الجماهير واستغفال لعقولها من اجل الحيلولة دون نقد الحاكم حين لا يعود الناس خائفين ، بعد ان كان نقده ممنوعا عندما كانوا خائفين . والخطأ الحقيقي الذي ارتكبه هيكل ، لا يكمن في أنه انتظر حتى يموت السادات ثم فجرّ قنابل المعلومات على قبره ـ إذ أن الدكتاتور لا يمكن نقده الا بهذه الطريقة . وإنما يكمن خطأ هيكل في أنه لم يكن يدرك هذه الحقيقة طوال الوقت ، بل عاش الجانب الأكبر من حياته واقعا في وهم « القطط والفئران » والشجاعة على الحاضرين والجبن على الغائبين .

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

تظل ردود الفعل على كتاب هيكل مصدرا مفيدا غاية الفائدة لتحليل أساليب التفكير المشوهة التي أصبحت سائدة في عالمنا العربي بعد سنوات طويلة من القمع . وتتعمق دلالة هذا التشويه حين ندرك ان الكاتب الذي أثار ردود الفعل هذه ، لم يسلم هو ذاته ، في كثير من الأحيان ، من الوقوع في اخطاء نقاده نفسها ، بحيث يشعر المرء بأن المسألة في حقيقتها لا ينبغي ان تناقش على مستوى اطراف النزاع ، ولا ينبغي ان تنحصر في البحث عن المصيب والمخطيء بين هذه الأطراف ، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن في ذلك الجو الفكري المزيف الذي طغى تأثره على الجميع ولم يسلم منه أي طرف . .

كان هيكل ، بغير شك ، مبالغا في حديثه عن العوامل الفردية والعائلية التي تحكمت في نشأة أنور السادات ، وصبغت شخصيته فيما بعد بصبغتها المميزة . صحيح انه ، حين يكون الحكم فرديا مطلقا ، تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه ، وربما نزواته ، دورا لا يستهان به ، يمكن ان ينعكس حتى على قراراته

المصيرية . ولكن المشكلة هي ان العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا : فالابن الذي يضطهده أبوه أو يسيء معاملته ، مثلا ، يمكن أن يتحول الى إنسان منحرف يضطهد الآخرين عندما يكبر ، ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى . ولكنه يمكن أيضا أن يكون إنسانا حنونا عطوفا على الأخرين ، لا يريد لهم نفس المحنة التي مر هو ذاته بها ، ويكون هذا أيضاً رد فعل على نشأته الأولى ـ وهكذا فإن الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها في الانسان البالغ ، هو دائما حديث محفوف بالمخاطر ، يقبل أشد التأويلات تناقضا .

خذ مثلا فكرة الأصل المتواضع ، والحياة الصعبة التي كانت تحياها أسرة السادات . هذا شيء يقبل تفسيرات شديدة التنوع . فكم من زعيم أسدى لشعبه أعظم الخدمات ، وكان أصله المتواضع هو الحافز له على ان يفنى حياته من أجل الشعب الذي يشعر دائما بانتمائه إليه . وإذا كان السادات قد أغرق نفسه في البذخ ، بصورة مبتذلة ، في حياته المتأخرة ، فإن هذا اختيار واع من جانبه ، وانتماء وانحياز منه إلى طبقة محوره ، وليس مجرد عقدة نفسية عبرت عن نفسها بصورة عكسية . فلماذا لم تؤدِّ عقدة الفقر بهوش منه او لومومبا مثلا إلى اختيار حياة القصور والاستراحات ؟ ألم يكن جمال عبد الناصر نفسه فقيرا[1] ؟ بل إن

---

(١) يلاحظ ان بعض ضحايا التأميات ، في عهد عبد الناصر ، قد فسروا إجراءات التأميم والمصادرة تفسيرا نفسيا يوازي تفسير هيكل لسلوك السادات ، فذكروا =

مثل هذا التفسير يمكن أن يستخدم ضد هيكل نفسه ، وقد أشار موسى صبري بوضوح مقزز إلى أصول هيكل العائلية ولمح إلى ما يسميه : من إظهار أبيه في الأماكن العامة ، بل إن كاتبا قدّم عملا روائيا ومسرحيا مشهورا تضمّن إشارات مماثلة تتعلق بشخصية من شخصيات الرواية رأى كثير من النقاد انها ربما كانت تعبيرا عن شخصية هيكل نفسه(٢) .

هذه أمثلة لا أذكرها إلا لكي أنقدها وأبين أنها مبنية على فهم باطل من أساسه لعملية تفسير مسلك رجل الدولة . ومع ذلك فقد تورط هيكل فيها ، خلال فصوله الأولى ، أكثر مما ينبغي . ولا شك أن نوعية الجمهور الذي وجه اليه الكتاب أصلا ، وهو الجمهور الأمريكي ، كانت مسئولة ، الى حد بعيد عن هذا التورط . فالأمريكيون مصابون بهوس العقد النفسية والتفسيرات السيكولوجية الرخيصة ، وهم ينفقون على العلاج النفسي ما يغطي ميزانيات عدة دول من العالم الثالث ، دون أن يجنوا من ذلك إلا مزيدا من السلوك غير السوي . وهكذا خاطب هيكل جمهوره الامريكي باللغة التي تروق له ، ولكنها للأسف لغة لا تفسر شيئا ، بل تزيد الأمور تعقيدا .

خذ مثلا مشكلة اللون . لقد كان هيكل -بلا إنصاف-

= انها تعبير من حقد عبد الناصر على طبقة الأغنياء وحسده لها بسبب أصوله الفقيرة ـ وهكذا يؤدي السبب الواحد الى نتيجتين متناقضتين .

(٢) انظر : الرجل الذي فقد ظله لفتحي غانم .

واضحا في هذه المسألة ، فأكد ان السادات كان معقدا من لونه « بلا داع » . وفي كل مرة كان يكرر انه لم يكن هناك ما يدعو الى هذا التعقيد اللوني . ولكن مجرد الاشارة الى اللون كانت كفيلة بإثارة ردود فعل غاضبة لدى كثير من الناس . وكان من أطرف ردود الفعل هذه ما كتبه مستشار سوداني احتج بشدة على ما ذكره هيكل عن عقدة اللون عند السادات ، مؤكدا ان هذا ليس رأي الشعب المصري في الشعب السوداني ، الذي يحبه المصريون ويفخرون به ، وذاهبا إلى أن هذه إساءة إلى الشعب السوداني تعرقل مسيرة التكامل بين البلدين « في ظل قيادة الرئيس نميري » . ورأى المستشار فيما قاله هيكل تفرقة عنصرية ، ومؤامرة مشتركة مع القذافي لعرقلة التكامل بين الشعبين . ولم ينس المستشار ان يشير إلى أسماء عدد من الشخصيات المصرية المشهورة التي كانت من أب سوداني أو أم سودانية ، كمحمد نجيب وعبد الله النجومي وعلي عبد اللطيف ، ولم يمنعهم ذلك من دخول التاريخ(٣) . هذا رد فعل مبالغ فيه بغير شك ، وربما كان طائشا ، نتج عن فهم قاصر لإشارة هيكل إلى لون السادات ، ولكن الموضوع بأكمله ما كان ينبغي ان يثار ، لأن أخطاء الحكام ، وخاصة حين تكون فادحة ، أعقد من أن تفسر بمثل هذه العوامل .

(٣) المستشار أحمد الشريف (سوداني) : مقال بعنوان « متى كانت الجنسية السودانية سبة ؟ » (الأخبار في ٢٦/٤/٨٣)

ولكن لنتوقف وقفة أطول عند صفة أخرى أكدها هيكل بإلحاح ، وأثارت ضده موجة من ردود الفعل العنيفة ، وأعني بها نشأة السادات الفقيرة ، التي أدت ، وفقا لتفسيرات هيكل النفسية ، إلى رد فعل في الاتجاه العكسي لدى السادات عندما أتيحت له فرص الإثراء . ولما كان هدفنا الدائم هو التوصل الى انماط الفكر التي أصبحت سائدة في أيامنا هذه ، والتي تشهد على الانهيار العقلي المميز لعهود القهر والكبت ، فسوف نبدأ بضرب أمثلة لردود الفعل التي لا يكاد يتصورها العقل ، على ما قاله هيكل عن فقر السادات في حداثته : فالكاتب الذي اقتبسنا عنه من قبل ، والذي تحدث بلسان السادات ، ردا على هيكل ، دون أن يذكر اسمه ، يقول : « صدقوا فيما يقولون . نشأتي عقيدتي . ذقت الفقر وقسوته فحاولت أن أجنّب غيري تذوق مرارته . تملكتني عقدة الرخاء ، وكانت أغلى أمانّي أن يوفقني الله إلى حماية مِن عنده لكل مصري ومصرية من مواجهة لا ترحم مع شيخوخة أو عجز أو عوز، وأن يقدّرني على طلب الطعام من الصحاري لكل فم ، وحق العلاج والدواء لكل عليل ، وتوفير البيت لكل عروس ، ويشهد الله والشعب الوفي الذي لا ينسى انني سعيت وحاولت قدر طاقتي » .

ويستنكر زعيم يمني سابق على هيكل أنه يعيّر السادات بفقره ، فيذكّر الفقهاء بأن الله قد اختار أنبياءه من الفقراء وقال لرسوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة

ربك فحدث . ثم يعلق الزعيم السابق المشهور قائلا : « ولم نسمع أن السادات قهر يتيما ،ولا نهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث . »[٤]

والنموذج الثالث شهادة سريعة لموسى صبري ، يكرر فيها قصة عن السادات الذي أصر على ان يقرأ بنفسه شكوى رجل فقير بعد أن حاول سكرتيره الخاص أن يعالج الموضوع دون تدخل من الرئيس ، ثم قال السادات لهذا السكرتير : « أنت يافوزي لم تعان الفقر كما عانيته . »[٥]

هذه الأمثلة تكفي للدلالة على التدهور الخلقي والفكري الذي يمكن أن يصل إليه الإعلام في ظل القمع . فكاتب العبارة الأولى ، على سبيل المثال ، لا يخجل من الحديث عن رحمة الرئيس بالفقراء ، ويتوهم أن الوعي لدى الجماهير قد انعدم الى حد نسيان مجموعة المليونيرات التي أحاطت الرئيس السابق وصاهرته ، وتلك التي أعطيت لها كل الفرص لنهب أموال الشعب في ظل الانفتاح . ولا يتورع الكاتب عن الحديث عن شقة لكل عروس في الوقت الذي تشهد به تجربة الناس اليومية أن أسعار المساكن الخيالية وصلت الى أرقام لم تعد تقدر عليها إلا عروس واحدة بين كل ألف عروس . وهو لا يستحي من الحديث عن الطعام لكل فم وسط الغلاء الطاحن ، ولا عن

(٤) انظر مقال الدكتور عبد الرحمن البيضاني في الأخرام ، ٢٤/ ٤/ ٨٣ .
(٥) مقالة موسى صبري في الاخبار ، ١٩/ ٤/ ١٩٨٣ .

الـدواء لكل مريض وسـط الإهمال الكاسـح لعـلاج الشعـب والارتفاع الصاروخي لأسعار العلاج الخاص . فماذا يمـكن أن يقول العقل والمنطق حين تصل الصفاقة بالاعلام الى هذا الحد ؟

إن من العبث أن يسترسل المرء في مناقشـة هذه الشهـادات الفجـة ، التـي لا ترتـكز إلا على مغالطـات مفضوحـة ، ومـا استشهدنا بهـا هاهنا إلا لكي نقـدم نمـاذج للمستـوى الـذي أصبحت تناقش به أمور المجتمع المصيرية في الوقت الراهـن . ولكن الأهم من ذلك هو أن نتساءل : هل يكفي التعليل الذي قدمه هيكل ، والذي يرتكز على فكرة عقدة الفقـر ، لكي يفسر البذخ المفرط الذي تميزت به حياة السادات ، وحياة المحيطين به من أقارب وأصحاب ؟ إن عقدة الفقر ، كما قلنا ، يمـكن أن تتجـه اتجاهـا عكسيا ، فتولـد لدى الحـاكم تعاطفـا حقيقيا مع الفقراء ، وسعيا جادا إلى استئصال الأسباب المؤدية إليه ، فلماذا اذن كان الاتجاه ، في حالة السادات ، إلى التمتع المفـرط بنعـم الحياة ، والاندماج التام بأكبر اثرياء المجتمع ؟

في رأيي أن المسألة اختيار واعٍ ومقصود لنمط معين من انماط الحياة ، ولفئة معينة في المجتمع هي الأقدر على إشباع احتياجات نمط الحياة المطلوب . فالتفسير هنا اجتماعي واقتصـادي قبـل أن يكون نفسيا .

والدليل على صحة الرأي نقدمه هو ان السادات حارب فكرة

الفقر ذاتها ، بطريقة متعمدة ، أملا في إلغائها من القاموس ، وبذل جهودا واعية لإقامة « فلسفة » خاصة به ، لا مكان فيها لمفهوم الفقر ، وبذلك تكتمل عملية تغييب الوعي لدى الجماهير التي تشعر بوطأة الفقر في حياتها اليومية حتى لو لم تفهم الأسباب الحقيقية المؤدية اليه . ففي معظم خطب السادات وأحاديثه كانت هناك دعوة متكررة الى إلغاء الحقد والاستعاضة عنه بالحب والتآلف والانسجام في ظل مجتمع « الأسرة الواحدة » الذي يرعاه ويسهر عليه « كبير العائلة » . والحقد هنا ليس إلا تطلع الفقراء إلى نمط حياة الأغنياء . وهكذا تقوم هذه الفلسفة المتهالكة على إذابة الوعي بالفقر ، وإلغاء الإحساس بالفوارق الصارخة بين الطبقات ، بدلا من ان تقوم على إلغاء هذه الفوارق ذاتها . ولا جدال في ان الالحاح على الناس ليل نهار كي يتخلوا عن الحقد ويحبوا بعضهم بعضا ، في إطار مجتمع يسوده كل هذا القدر من التفاوت في الثروات وفي كافة فرص الحياة ، إنما هو محاولة واعية لتزييف عقول الناس بحيث تنسى واقعها الأليم ذاته ، وليس على الإطلاق مجرد رد فعل نفسي من جانب الحاكم على نشأته الفقيرة .

ولعل الدليل الأوضح من هذا كله هو موقف السادات من أحداث يناير ١٩٧٧ . فهذه الأحداث كانت « ثورة فقراء » بمعنى الكلمة . والأمر الملفت للنظر حتما ، في موقف السادات إزاءها ، ليس أسلوب القمع العنيف الذي اتبعه لاخمادها ،

فهذا هوالمسلك المنتظر من أي حاكم في مثل موقفه . ولـكن ما ينفرد به السادات هو أنه حاول أن يلغي طبيعة الحدث ذاتـه ، ويحذف منه عنصره الأساسي ، عنصر الفقـر ، حذفـا كامـلا . وهكذاظل السادات شهورا طويلة، بعد يناير ، يوجه إلى كل من يناقشه أو يحاوره سؤالا لا يتغير : انتفاضـة شعبية ام انتفاضـة حرامية ؟ وتبعـا للاجابـة عن هذا السـؤال يتحـدد موقف كل شخص ، إن كان مع السلطة أو ضدها ،من أنصار الانفتاح أو خصومه ، من الطبقة العليا الجديدة أم من الطبقـات الـدنيا . كان اطلاق اسم « الحرامية » على تلك الملايين التي خرجت في مظاهرات تلقائية عارمة ضد رفع الأسعار . هو في ذاتـه اختيار طبقي لا تخطئه أي عين . وبغض النظر عن أن وجود كل هذا العدد الهائل من « الحرامية » (لو صحت التسمية) هو في ذاته دليل على أن هناك خللا أساسيا في المجتمع ، فإن الشيء الـذي ينطوي على دلالة عميقـة هو ان الاختـلاف حول الاسـم كان يعكس محاولة من الحاكم لإنكار وجود الفقر في المجتمع أصلا . فالمتظاهرون لم يخرجوا لأنهم فقراء بل لأنهم « حرامية » . هذه قمة التوحد مع الطبقة الثرية التي أصبحت تحكم مصر وتنهب مواردها . . ذلك التوحد الذي يصل إلى حد إلغاء كلمة الفقر من القاموس ، وكأن حذف لفظ معين وإحلال لفظ آخر محله سوف يستأصل الظاهرة نفسها من جذورها !

كانت تلك ، بطبيعة الحال ، واحدة من تلك الحالات التي

يقوم فيها اختيار لكلمة مخففة بالتغطية على حقيقة أليمة مريرة ، تلك الحالات التي ستكتشف فيها أجهزة الاعلام سحر « الكلمة » ، فتتلاعب بها وهي واثقة من أن الكلمة المزيفة ، إذا ما تكرر استخدامها الى الحد الكافي ، تستطيع أن تغير طبيعة الظاهرة التي تتحدث عنها وتشكّلها بالطريقة التي تحقق أهداف الحاكم - ويدخل في هذا الاطار استخدام أجهزة الاعلام المتكرر للفظ « النكسة » بدلا من الهزيمة الثقيلة في يونيو ١٩٦٧ ، وحديثها الدائم عن « سيادة القانون » ، بمعنى وضع قوانين مزيفة توافق عليها الأغلبية الآلية في المجالس النيابية ثم ضمان « السيادة » لها ، واستخدامها تعبير « تحريك الأسعار » بدلا من الغلاء الفاحش ، وهلم جرا .

على أن الأمر الملفت للنظر هو ذلك الافتقار العجيب إلى سياسة محددة المعالم ، قابلة للتنفيذ ، لمواجهة ظاهرة الفقر في مصر . فبدلا من التصدي للظاهرة بأساليب مخططة ومدروسة ، كان الحاكم يتحدث في كل مناسبة ، عن أمنيته الغالية ، وهي أن يكون لكل مصري « فيلا وسيارة » خاصة به ، ومثل هذا الحديث ليس مجرد تخدير لحواس الناس وعقولهم فحسب ، بل هو ايضا دليل على ان فكرة المواجهة العلمية للمشكلات غير موجودة في ذهنه أصلا : ذلك لأن بلداً كمصر لا يحتمل ببساطة ، أن يكون لكل مواطن فيه « فيلا وسيارة » ، حتى لو كان نظام الحكم فيه وطنيا مخلصا بلا أي شائبة . والنظرة العلمية

إلى مشكلة كهذه هي التي تحدد الأهداف وفقا للإمكانات الموجودة ،وتكتفي بالحد الأدنى للمعيشة الآدمية بدلا من أن تغرق الناس في أوهام يستحيل تحقيقها . ومن المؤكد ان المفارقة لابد أن تكون قاسية بين حلم « الفيلا والسيارة » ، حين يشيعه بين الناس أكبر مسئول في الدولة ، وبين الأسعار الفلكية للمساكن الجديدة ، ووسائل المواصلات اللا إنسانية التي لا تملك الأغلبية الصامتة غيرها . وفي مثل هذه الحالات ، يكون التقدير الواقعي للأهداف أقدر بكثير على تهدئة مشاعر الناس وبعث الأمل في نفوسهم من أي تعبير تخديري حالم .

المهم في الأمر أن مـــن المحاولات الواعية المتعمدة للتغطية على حقيقة الفقر الصارخة ، ولتعليل الناس بآمـال زائفـة ، لا يمكن أن تكون مجرد تعبير عن « عقدة فقر » متأصلة منذ النشأة الاولى ، وإنمـا هي تعبـير عن اختيار وانحياز إلى جانـب القلـة المستغلة ضـد الأكثرية المطحونـة من وطـأة الاستغـلال . إنهـا فلسفة متكاملة ، دبرت وخططت بعناية وبخطـوط مرسومـة ، وليست مجرد رد فعل سيكولوجي على ظروف الفقر التي سادت خلال فترة النشأة الأولى . ومن هنا يبدو ان الخطأ الذي ارتكبه هيكل في هذا الجزء لا يقل فداحة عن ذلك الذي ارتكبه خصومه ممن تحمسوا للدفاع عن السادات ، سواء منهم ذلك الذي أكد أن فقر السادات جعله يسعى حثيثا لاستئصال كل مظاهر الفقر في بلاده ، أو ذلك الذي ذرف دموع التماسيح وهـو يتحـدث عن معاناة رئيسه من الفقر في حداثته ، او ذلك الذي شهـد ـ بكل

أمانة وإخلاص ـ بأن السادات لم يقهر يتيما ، ولم ينهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدّث !

أن الاهتمام الزائد بعوامل التنشئة والتربية والبيئة الأولى ، في حياة السياسيين ، يمكن أن يؤدي إلى عكس الهدف المقصود منه . ففي حالة السادات كان من الممكن ـ كما قلنا من قبل ـ أن تُفسر نشأته المتواضعة على نحو يؤكد تعاطفه مع الفقراء ، كما فعلت أجهزة الاعلام المؤيدة له بالفعل . ولو قيل إن النشأة المتواضعة ، وليست الاختيار الأصيل ، هو الذي أدى به إلى ارتكاب أخطائه ، فإن مثل هذا التعليل يعني التماس شيء من العذر للحاكم . لأنه سيكون عندئذٍ « ضحية » ظروفه العائلية القاسية ، وربما اقتنع البعض بأنه لم يكن يملك ان يفعل إلا ما فعل . وهذا كله هروب من المسئولية الحقيقية : مسئولية الاختيار الواعي ، المخطط ، المرسوم ، الذي تخلى فيه السادات عن طبقته الأصلية وانحاز بكل قوة إلى صف أصحاب الملايين الجدد .

ومع ذلك فإن هيكل يبرز هذا العامل إلى حد تصوير المسألة كما لو كانت مسألة إنسان مصاب بمجموعة من العقد النفسية التي لم يكن يستطيع التخلص من تأثيرها طوال حياته . وإذا قال البعض ، دفاعا عن هيكل ، إنه لم يفعل ذلك إلا في الفصول الاولى . بينما خصص الفصول التالية للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والفكرية الموضوعية ، فإن هيكل نفسه

يعود فيؤكد التهمة الموجهة إليه حين يقول في الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعد ان عرض ملحمته الطويلة عن السادات ، وأراد ان يلخص في النهاية ما انتهى إليه من نتائج : « يمكن الآن بأثر رجعي أن يقال أن غلطة السادات الكبرى تمثلت في تضحيته بالأهداف الاستراتيجية لمصر من أجل مناورات تكتيكية كان مشكوكا منذ البداية في قيمتها . ويمكن ان يقال ـ وبحق ـ أن حرب أكتوبر كانت فرصته الكبرى ، بل كانت فرصة لم تتح لحاكم مصري قبله في تاريخ مصر الحديث، بما في ذلك محمد علي وجمال عبد الناصر ، ولكنه ألقى بكل شيء في الهواء . وربما كانت المسئولية تقع على نوع الحياة التي عاشها ، او ربما كانت تقع على نقص حصيلته من التعليم والعلم ، وكلها عوامل تجعل من الظلم إصدار حكم قاطع عليه » .

هنا ، وفي نهاية الكتاب ، يعمد هيكل إلى استخدام التعليلات الشخصية ، مثل نوع الحياة التي عاشها الحاكم ، أو نقص تعليمه ، لكي يفسر بها أخطر الأحداث ـ وكان السادات لو كان أكثر علما لتغيرت سياساته جميعا . أما المصالح والانتماءات والارتباطات ، فلا مكان لها في تعليلات هيكل . فظروف الحاكم ، من حيث هو فرد معين نشأ في أوضاع معينة ، هي التي تفسر كل شيء . وإن المرء ليعجب كيف يقبل مفكر ومحلل كبير ، كان أقرب المقربين الى حكام أكبر بلد عربي خلال ربع قرن من الزمان على الأقل ، ان يقدم مثل هذا التعليل الجزئي

الضيق لأحداث سياسية كبرى ، ويتجاهل عوامل أساسية مثل اختيار الحاكم أن ينتمي الى الشريحة العليا للمجتمع ويربط مصيره بها . مثل اتباعه اسلوبا للحكم غير مستند الى إرادة شعبية تعبر عن نفسها تعبيرا حرا سليما . فهل يكون من المستغرب بعد ذلك ان تكون النتيجة التي يصل اليها تحليله هي أن « من الظلم إصدار حكم قاطع عليه » ؟

وكل ما أستطيع ان أقوله من تفسير لهذا القصور الشديد في التحليل ، هو أن من اعتادوا الاقتراب الشديد من حكام أفراد بعيدين عن الديمقراطية ، ومن ألفوا رؤية أخطر القرارات تصدر بإرادة فردية مطلقة ، لن يستطيعوا أن يخرجوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم عن إطار الظروف الشخصية لأصحاب السلطان .

* * *

إن المناقشة الطويلة التي قمنا بها ، على مدى هذه الحلقة والحلقتين السابقتين ، لردود الفعل على ما كتبه هيكل ، إنما كانت تستهدف ، قبل كل شيء ، إظهار عناصر الضعف والتفكك في الجو الفكري الذي عاش في ظله هيكل وخصومه معا . فالجميع يقعون في أخطاء متشابهة ، وإن كانت هذه الأخطاء مكشوفة مفضوحة في بعض الحالات ، وغير ظاهرة للعيان في حالات أخرى .

وأبرز هذه الأخطاء هو الخلط بين العوامل

الشخصية والعوامل الموضوعية في تحليل الظواهر السياسية واصدار الأحكام على تصرفات رجال الدولة . هذا الخطأ واضح كالشمس في استنكار الساداتيين لعدم الوفاء وانتهاك الحرمات ونبش القبور ، ولكنه ظاهر أيضا في تأكيدات هيكل ، في مواضع كثيرة من كتاباته ، بأن نقد الحكام بعد موتهم ليس من الشجاعة في شيء . ان المنهج الفكري واحد ، وإن كان يطبق في حالة هيكل ـ كما يحدث دائما ـ بطريقة اكثر ذكاء وخفاء .

ومن شأن اتباع هذا المنهج ان يبدو الصراع حول المسائل السياسية الكبرى كما لو كان ثأرا بين اشخاص . وهكذا يقول البعض ، تأييدا لموقف هيكل ضد مهاجميه : أين كنتم عندما كان عبد الناصر يُشتم؟ فيرد البعض الآخر ممن ينقد حملة هيكل على السادات ، ولماذا هاجمت دكتاتورية السادات وسكت عن دكتاتورية عبد الناصر ؟ ويظل كل من الطرفين حريصا ، قبل كل شيء ، على ألا يوجه اللوم الى الرئيس الذي يدافع عنه ويترك الآخر ، اما القضية الأصلية ، وهي ان حق النقد ينبغي ان يكون مباحا للجميع ، وفي عهود كل الحكام ، سواء في حياتهم أو بعد مماتهم ، فلم يدافع عنها أحد .

وحين تثور العواصف ضد هيكل من صحفيين كانوا زملاء له ، ثم اندمجوا في العهد الساداتي ، يعلق على ذلك بأسف قائلا : « ليس بينهم من لم أقف معه في احلك الظروف ولم افعل كل ما في وسعي لمساعدته ، ولولا انني لا أريد ان أمنّ على

احدا ، لذكرتهم لك واحدا واحدا وبالاسم ورويت ما قدمته لهم » . (٦)

إنه هنا يلخص الموقف كله : فهو يتصور انه بمثل هذه الاشارات الى الخدمات الشخصية التي اسداها يرد على نقاده ، وينسى ان القضايا المثارة أخطر بكثير من منطق الخدمات والمساعدات الفردية ، ويثبت انه لا يختلف عن مهاجميه ممن خضعوا لمنطق الحكم المطلق وعجزوا عن تفسير الظواهر العامة إلا من خلال سلوك الافراد .

---

(٦) حديث مع صلاح عيسى في « الاهالي » بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٧ .

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

من سمات عهود القمع الفكري وكبت الرأي المعارض انها تنشىء أجيالا لا تعرف التاريخ الا في صورة مشوهة . فحين تكون وجهات النظر المتباينة متاحة يستطيع العقل الناضج أن يكون صورة صحيحة عن احداث التاريخ وتياراته ، ويصدر احكاما سليمه على السياسات التي تحكمت في صياغته . اما حين يسري الحظر الكامل على وجهات النظر التي تخالف موقف السلطة الحاكمة ، فكيف نتوقع من اي جيل لم يتعرض الا لوجهة النظر هذه ، أن يفهم احداث التاريخ ويصدر حكما صحيحا عليها ؟

وأستطيع أن أقول ان الاجيال التي تقل اعمارها عن خمسة واربعين عاما ، وهي بالطبع تشكل الاغلبية في العالم العربي المعاصر ، لا تعرف عن تاريخ ما قبل الثورة ١٩٥٢ سوى معلومات غير موضوعية وغير منصفة . هذا بالطبع لا يمنع من ان يكون ثمة افراد هنا وهناك بذلوا جهودا مضنية في القراءة والاطلاع والبحث عن الحقائق من مصادرها الاصلية ، بحيث لا يسري عليهم هذا الحكم ، ولكن مثل هذه الجهود لاتتاح الا

للقلة القليلة ، بحيث يمكن القول ان الجيل بوجه عام لم يعد يعرف ذلك التاريخ الا من خلال وجهة نظر معادية له ، ومن ثم فقد حرصت كل الحرص على تشويهه .

كانت تجربة مصر مع الديمقراطية تجربة فريدة بحق . فمنذ القرن التاسع عشر كانت هناك مجالس نيابية ، حاول حكام مصر في ذلك الحين ، وهم أتراك او انصاف اتراك ، ان يستغلوها لحسابهم ، وجندوا بالفعل عددا من الاعوان والاذناب ، ولكن كان هناك دائما من يتصدون للقهر والطغيان ، وشهدت هذه المجالس مواقف مجيدة كان نواب الشعب فيها يدافعون عن الدستور ضد سلطة الحاكم ، ويؤكدون سيادة الشعب ويحمون حقوقه . كانت تجربة ديمقراطية مبكره ، سبقت نظيراتها في كثير من البلاد الاوربية ، وكانت شهادة بالغة الدلالة على ان الشعب يستطيع ان يجني من الديمقراطية مكاسب هامة ، مهما كانت قوة التيارات التي تقف في وجه تطوره .

ولقد كانت هذه التيارات قوية بغير شك . فقد كان هناك القصر (الخديوي في البدء ، ثم الملوك بعد ذلك) ، وكان هناك الانجليز ، وكان هناك اعوان يستطيع الحكام شراءهم بالوعود والمصالح ، ولم يكن الطريق بالتالي سهلا على الاطلاق . ومع ذلك فقد كان الشعب يؤكد حقوقه ويدافع عن حرياته في كل فرصة تتاح له .

وحين قامت الثورة ١٩١٩ في مصر ، لم تكن الثورة التي

عمت البلاد من اقصاها الى اقصاها ، والتي شاركت فيها الطبقات الدنيا والوسطى وكثير من شرائح الطبقة العليا ، ولم تعرف تفرقة بين مسلم وقبطي في الكفاح من اجل الوطن - لم تكن هذه الثورة كفاحا ضد الاجنبي المحتل فحسب ، بل كانت في الوقت ذاته جهادا من اجل تأكيد الديمقراطية والحقوق الدستورية للشعب ، وكان من ابرز مظاهر النضج السياسي في ذلك الحين وجود وعي كامل بان الكفاح من اجل الاستقلال والكفاح من اجل الديمقراطية لا ينفصلان .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، تميزت الحياة السياسية بطابع الصراع العنيف ، الذي تحددت معالمه بوضوح تام ، بين تيارين : تيار رجعي يمثله القصر والانجليز واعوانهما ، وتيار شعبي مستنير يمثله الوفد . ولم يكن الوفد حزبا مثاليا ، بل كانت في داخله تيارات متعارضه ، كما كان يضم شرائح متباينه من المجتمع الى الحد الذي يجعله اقرب ما يكون الى صيغة « تحالف قوى الشعب » ، تلك الصيغة التي بذلت فيما بعد محاولات لتطبيقها في اطار غير ديمقراطي ، فلم تلق نجاحا .

ومع ذلك كان في الوفد ميزتان اساسيتان : الاولى انه كان على وعي تام بأن مصدر قوته هو التأييد الشعبي الساحق ، ومن ثم فقد كان في اوقات الازمات يقف بصلابة في الدفاع عن الدستور وعن حقوق الشعب التي هي رصيده الاكبر . والثانية

هي مرونته وقدرته على تطوير نفسه وفقا للاحداث ، مما أتاح له ان يصمد صمودا رائعا ، طوال الفترة الواقعة بين ثورتي ۱۹۱۹ و ۱۹٥۲ ، على الرغم من كل حملات التشويه والتشنيع التي كانت تشن ضده بانتظام . وبفضل هاتين الميزتين استطاع الوفد ان يكتسح احزاب الاقلية ، التي خلقها القصر والانجليز لمحاربته ، في كل انتخابات تجري بقدر معقول من الحرية . وكان آخر انتصاراته ، واكثرها مدعاة للدهشة في نظر خصومه ، هو فوزه الساحق في الانتخابات التي اجريت في اواخر ۱۹٤۹ ، بعد فترة بدا فيها لخصومه في الداخل والخارج انهم افلحوا في تشويه صورته عن طريق اختلاق تفسير كاذب لاحداث ٤ فبراير ۱۹٤۲ ، وعن طريق انشقاق مكرم عبيد ونشره « كتابا اسود » ضد الوفد ، وعن طريق انشاء دار « اخبار اليوم » الصحيفة خصيصا لخدمة اهداف الملك والانجليز والتخصص في تشويه صورة الوفد .

اننا لانقدم هنا استطرادا خارجا عن الموضوع ، ولا نود ان نقطع حبل الاحداث التي اثارها كتاب هيكل او التي ظهر كرد فعل عليها ، اذ ان هذه الملاحظات تدخل في صميم الموضوع ، وهي في رأينا تكمن في قلب المأساة الفكرية والسياسية التي تعاني منها مصر والامة العربية في الوقت الراهن . فهناك كما قلنا جيل يجهل هذه الاحداث او لايعرفها الا من خلال ما كتبه عنها خصومها منذ عام ۱۹٥۲ . ومن حق هذا الجيل على من شهدوا

هذه الفترة بوعي وفهم ان يدلوا بشهادتهم ، وسواء اقتنعوا بهذه الشهادة ام لم يقتنعوا ، فلينظروا اليها على انها مادة خام تساعدهم على المزيد من التحليل والتفكير .

كانت الفترة التي تولى فيها الوفد السلطة ، بعد انتصاره الساحق في آخر انتخابات اجريت قبل الثورة ، وآخر انتخابات حرة في تاريخ مصر ، فترة فريدة بحق في تاريخ هذه المنطقة كلها . ومن المؤسف حقا أن احداث عامي **١٩٥٠** و **١٩٥١** لم تنل حظها من الدراسة والتحليل ، مع ان هذه الفترة بالذات تلقي الضوء على الكثير جدا من التطورات التالية . ولن يسمح لنا المجال ها هنا ، ولا الحرص على الاحتفاظ بتسلسل المناقشة وترابطها ، بأن نتحدث بأي شيء من التفصيل عن هذه الفترة الحاسمة التي تنطوي على مفاتيح تفسر احداثا كثيرة وقعت فيما بعد ، ولكن حسبنا ان نشير في عجالة الى الخطوط العريضة لاحداث هاتين السنتين الحاسمتين ، اللتين بدأتا عند استدارة القرن العشرين الى نصفه الثاني ـ وكانتا نقطة تحول اساسية بين التاريخ السابق والتاريخ اللاحق .

في هاتين السنتين الحاسمتين وقعت الاحداث الكبرى الآتية :

١ ـ تركت الحرية للصحافة لكي تهاجم الملك ـ اقوى سلطة في البلد ، بارتكازه على قوتي الانجليز والجيش ـ واتخذ الهجوم في بعض الاحيان طابع الفضح المباشر لتصرفات

الملك واسرته . وكان مما ساعد على ضمان هذه الحرية ، معركة مشهورة نشبت في ذلك الحين حول تشريعات مقيدة للصحافة (وهي تشريعات لا تساوي شيئا اذا ما قيست بالقيود الفعلية التي اصبحت تمارس ضد حرية الصحافة بعد عام ١٩٥٢) ، واستطاع فيها الضغط الشعبي ، ممثلا في حملة صحفية رائعة ضد التشريعات الجديدة ، ان ينتصر في النهاية ، فسحبت التشريعات وتأكدت حرية الصحافة .

٢ ــ قامت الحكومة ، استجابة لمطالبات شعبية واسعة النطاق ايضا ، بالغاء معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز ، وبدأ عهد الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية في منطقة القناة . وبقدر ما كانت حركة الكفاح المسلح ارتجالية في البداية ، فانها كانت تحمل للدول الغربية الطامعة في المنطقة ، وعلى رأسها القوة الامبريالية الجديدة (امريكا) ، نذرا خطيرة الى ابعد حد : هي تكوين نواة لجيش شعبي مدرب على مكافحة الاستعمار ، وهو اكبر خطر تخشاه هذه القوى الاجنبية ، وخاصة اذا انتقلت عدواه فيما بعد الى الاقطار العربية الاخرى .

٣ ــ وضعت اسس راسخة لمباديء العدالة الاجتماعية وديمقراطية الحكم ، فطبق مبدأ مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، واتسع نطاق القبول المجاني في الجامعة الى حد

بعيد ، وطبق طه حسين ، حين كان وزيرا للتعليم ، مبدأ « التعليم كالماء والهـواء » ، وكانـت تلك هي البـداية الحقيقية للتحول الاجتماعي ، ليس فقط في التعليم ، بل في فرص العمل وادارة دفة المجتمع .

وهكذا كانت تلك التجربة الاخيرة لحكم الوفـد هي ذروة التطور الديمقراطي الذي سارت فيه مصر طوال فترة لاتقل عن ثلاثة ارباع القرن . ومن الملفت للنظر ان هذه التجربة الرائعة كانت تتم في وجه عقبات هائلة ، ولم يكن طريقهـا سهـلا او معبّدا على الاطلاق ، اذ كان هناك ملك مستبد يشعـر بالخطـر الذي يتهدده من هذه التطورات ، ويتحـين الفـرص لاسقـاط الحكومة التي ستؤدي سياستهـا حتما الى القضـاء عليه ، وكان هناك احتلال بريطاني يريد ان يثبت اقدامه ويتعاون مع اعداء الحكومة الوطنية بكل الوسائل، وكان هناك جيش يدين قادته بالـولاء المطلق للقصر . ومع كل هذه المعوقات تحقـق الكثـير ، وازداد الشعب التفافا حول حكومته التي كانت تطور نفسها مع مطالب الجماهير ، وكانت الاجنحة التقـدمية فيهـا تكتسـب مزيداً من الشعبية على حساب الاجنحة الاكثر محافظـة . ولـم يكن امام الملك ، ازاء هذا التأييد الشعبي الجارف لحكومته ، الا ان يلجأ الى التآمر من اجل ازاحة الحكم الوطني ، فكان حريق القاهرة ، أو الثورة المضـادة التـي اثبتـت ، بعـد وقـت قصـير ، فشلهـا الكامل ، وكشفت النظام الملكي في عجزه وتقلبه ووصولـه الى

طريق مسدود .

لماذا ، اذن ، نتحدث عن هذه الفترة ، وما علاقتها بموضوعنا الاصلي ؟ السبب الاول هو ان هذه الفترة مجهولة لدى ابناء الجيل الاوسط والاصغر في عالمنا العربي بوجه عام ، وفي مصر بوجه خاص[1] . والكثير منهم لايعرف عن هذا العهد الا مجموعة من القوالب اللفظية التي تكرر ترديدها على اسماعهم الى حد انهم اصبحوا يأخذونها كما لو كانت من المسلمات المؤكدة ، كالحديث عن « الفساد » في عهد ما قبل الثورة ـ وعن « فشل التجربة الحزبية » وعن « تخبط الاحزاب وسعيها الى مصالحها الضيقة » وعن « الازمة التي انتهت اليها الديمقراطية الحزبية قبل الثورة » ، الى آخر هذه العبارات التي يعرفها الجميع ، والتي تخفي في واقع الامر اهم معالم تلك التجربة الخصبة الى ابعد حد .

(١) يمكن القول ان عهد عبد الناصر بدوره اصبح تاريخا غير واضح المعالم بالنسبة الى جيل الشباب الحالي ، ممن تقل اعمارهم عن الثلاثين . ذلك لان العهد الذي تلاه ، والذي كان بدوره حكما فرديا ، لم يتح الفرصة لهذا الجيل كيما تكون له رؤية تاريخية متوازنة لعهد عبد الناصر ، ومن هنا كان ابناء هذا الجيل اما متحمسين للعهد الناصري الى درجة الرومانتيكية غير المرتبطة بالواقع ، واما متأثرين بالدعايات المضادة التي تقدم للعهد صورة مشوهة غير واقعية ايضا . وهذا مثال آخر للتشوية الذي يلحق بالتاريخ من جراء القمع وكبت الحريات وتحريف كل عهد لتاريخ العهد السابق عليه .

اما السبب الثاني فهو تلك المواقف غير المنصفة التي وقفها هيكل من تلك التجربة .

كان هيكل ، منذ بداية نضجه الصحفي ، منتسبا الى مدرسة « اخبار اليوم » في الصحافة ، وهي مدرسة لها سمات خاصة ، اهمها الولاء للقصر الملكي وتأييد احزاب الاقلية والدعاية لكل قوة معادية لحزب الاغلبية الشعبية ، اعني الوفد . وكان قطب هذه المدرسة ومعلمها الاكبر هو « محمد التابعي » ، وهو صحفي مخضرم كان يؤمن بأهمية الاثارة الصحفية عن طريق الفضائح والجنس في اجتذاب مزيد من القراء لاية جريدة . ومن الانصاف لهيكل ان نقول ان مجرد انتمائه ، خلال فترة هامة من حياته الصحفية ، الى دار « اخبار اليوم » لا يعني بالضرورة أنه كان يتبنى جميع الاسس التي قامت عليها هذه الدار . ولكن من الانصاف للتاريخ ان نقول انه لم يبد اي نوع من التمرد الواضح عليها .

كانت هذه الدار التي أنشئت أساسا لتلطيخ سمعة الوفد (وقد أثبتت انتخابات آخر سنة ١٩٤٩ أنها فشلت في ذلك فشلا ذريعا) ، هي التي مجدت مجموعة الشباب التي كان ينتمي اليها انور السادات ، وعلى رأسها المغامر المشبوه حسين توفيق ، وهكذا كانت تروي عنهم حكايات اسطورية ، وكان الغطاء الوطني لعملياتهم هو العداء لقوات الاحتلال البريطاني ، ولكن الهدف الحقيقي منها هو تخليص القصر من أعدائه ، عن

طريق التصفية الجسدية ، كما تشهد محاولات السادات المتكررة لاغتيال رمز الوطنية المصرية في ذلك الحين ، مصطفى النحاس .

ولقد تضمّن « خريف الغضب » تعبيرات كثيرة تحمل في طياتها اعترافا بالدور الوطني الذي قام به الوفد ، وبالفارق الشاسع ، في هذه الناحية ، بين الوفد وأحزاب الأقلية الأخرى . فهو مثلا يتحدث عن حزب الوفد المصري الذي يقوده مصطفى النحاس والذي كان يمثل اغلبية الوطنيين في مصر » . ويصدر حكما مثل : « أما الوفد ـ وبرغم كل محاولات تزوير الانتخابات ـ فقد ظل حزب الأغلبية ، يتمتع بتأييد شعبي لا ينازعه فيه اي حزب سياسي آخر » . كما يشير بوضوح الى المعارك الدستورية المجيدة التي خاضها الوفد ضد القصر ، ويؤكد ان « كفاح » السادات ضد الوفد ومحاولاته اغتيال مصطفى النحاس واشتراكه في مقتل أمين عثمان ، كل ذلك كان لصالح السراي ، ، وقد تحقق عن طريق علاقة السادات بالحرس الحديدي ، الذي يبدو انه كان يقوم بدور « عمالة مزدوجة » ، لصالح القصر في الواقع ، ولصالح الوطنية المتطرفة في الظاهر ، وكان مثل كثير من القوى شديدة التطرف ، عاملا لحساب قوى شديدة الرجعية ، بل ان هيكل يتحدث عن « صحافة القصر » (ويقصد اخبار اليوم ، حيث كان يعمل) التي راحت تصور هؤلاء الشباب على انهم ابطال شعبيون . . .

وكل هذه كلمات صحيحة كل الصحة ، ومنصفة لتاريخ مصر في تلك الفترة .

ولكن المفارقة تظهر حين يعود هيكل فيصدر أحكاما مناقضة ، يبرر بها استيلاء الجيش على السلطة في ١٩٥٢ فيقول : « في ذلك المناخ (الأربعينات) بدت السياسات المصرية التقليدية القائمة على المناورة والتوازن بين الانجليز والقصر والوفد ـ بدت شيئا فات اوانه لأنه يفقد صلته بالحقائق الجديدة يوما بعد يوم . كان لا بد من تغيير ، ولم تكن هناك فائدة ترجى من انتظار التغيير بواسطة حزب سياسي قديم او جديد ، فلقد كان التركيب الطبقي في مصر لا يزال في حالة سيولة ، الأمر الذي يمنع ظهور قاعدة اجتماعية صلبة يقوم عليها تنظيم سياسي حقيقي ويزدهر . وهكذا فإنه حين جاء التغيير ، كان مصدره هو القوة الوحيدة التي تمثل ارادة الاستمرار من ناحية ، وتملك قدرة العمل من ناحية اخرى ـ الجيش » .

هنا يعود هيكل القديم ، هيكل الخمسينات ، الى الكلام ، على الرغم من أنه كان يكتب في الثمانينات . فمن قال ان السياسة المصرية قبل الثورة قامت على المناورة والتوازن بين الانجليز والقصر والوفد ؟ لقد كانت تقوم ، كما تدل عبارات هيكل نفسه التي اقتبسناها من قبل ، على صراع واضح المعالم بين الشعب ، ممثلا في الوفد من جهة ، والقصر والانجليز وأحزاب الاقلية من جهة اخرى . كان صراعا حول

قضـايا متبلـورة تمامـا ، القضية الـوطنية ـ الديمقـراطية ـ حكم الدستور ـ توفير المطالب الشعبية . وعلى العكس من ذلك يمكن القـول ان أول ما حرصـت عليه ثورة ٢٣ يوليو كان إسـكات الصراع ، الـذي يرمـز له إعـدام اثنـين من العمال (خميس والبقـري) بالتهمـة التقليدية (الشيوعية) في الأيام الاولى للثورة ، ثم ظهور مختلف التنظيمات القائمة على فكرة التوازن ، لا الصراع ، وأولها هيئة التحرير .

وهكذا يتحدث هيكل حينا بطريقة تدل على أنه أدرك حقيقة القوى المتفاعلة في تلك الفترة المظلومة من تاريخ مصر ، ولكنه سرعان ما يعود الى موقفه التقليدي ، ذلك الموقف الذي وقفتـه ثورة يوليو منذ البداية ، وأعني به وضع الأحزاب جميعا في سلة واحدة وكأنها كلها خانت وفشلت وتنكرت للحركة الوطنية ، ثم الترويج لتلك الأسطورة التي لم يكن لها أي أساس من الواقع او التاريخ ، وأعني بها انه « لم تكن هناك فائدة ترجى من أن يأتي التغيير من حزب سياسي » ، تلك الأسطورة التي تريد أن تسدل ستارا من النسيان على تجربـة ديمقـراطية عظيمـة ، كانـت تبشر بتطورات وتصحيحات هائلة لمسارها ، لو كتب لها البقاء بعـد إزاحة العقبات التي كانت تعرقل مسيرتها حينا وتبطيء حركتها حينا آخر .

من أجل هذا يقدم هيكل تبريرات لمجموعة الاجراءات التي أدت الى القضاء على التجربة الحزبية في مصر ، وهي اجراءات

تكررت ، مع اختلاف في التفاصيل ، في كثير من الأقطار العربية الأخرى حين قامت فيها حركات عسكرية مماثلة ، وهكذا يذهب هيكل الى ان الشرعية التقليدية في بلاد العالم الثالث لها أساس قَبَلي أو ديني ، وحين تحاول أن تنتقل في العالم الثالث الى شرعية ذات اساس دستوري وقانوني ، تستند في عملية الانتقال هذه الى ضرورات الاستمرار ، وتمثلها « البيروقراطية » بما فيها القوات المسلحة » ، وكذلك الى شخصية الزعيم .

ولست ادري على أي بلد من بلاد العالم الثالث ينطبق هذا الكلام ، لأن عمليات الانتقال التي ترتكز على القوات المسلحة وعلى شخصية الزعيم لا تمثل في أية حال من الحالات تحولا نحو الشرعية الدستورية والقانونية . ولكن ما أعلمه حق العلم هو أن هذا الكلام حين يقال عن مصر بالذات ، يكون عدوانا صارخا على الحقيقة والتاريخ ، فقد كانت مصر شرعية دستورية قائمة بالفعل ، وكانت تكافح ببطولة من أجل تطهير نفسها من القوى المعادية للدستور . وليس صحيحا ان حركة الجيش ، في مصر او غيرها ، كانت محاولة للانتقال من شرعية تقليدية الى شرعية دستورية ، بل ان العكس هو الصحيح : اذ كانت الحركة في اساسها انتقالا من تجربة ناضجة في الشرعية الدستورية الى نمط في الحكم لا يكترث كثيرا بمعنى الشرعية ، ولا يعترف بالدستور الا على الورق .

وبمثل هذه الفلسفة المضللة تم تبرير كافة الاجراءات التي

اتخذت في السنتين الأوليين للثورة ، من أجل التضييق على الأحزاب (وكان المقصود بها واقعيا حزب الوفد وحده) ، ثم فرض شروط صعبة التحقيق عليها ، ثم الادعاء بأنها لم تتمكن من تلبية هذه الشروط ، ثم يتكرر المسلسل المعتاد ، الذي اصبح « نموذجا » تحتذيه الانقلابات العسكرية في كافة ارجاء العالم الثالث : إيقاف المسار الطبيعي للدستور ، وإلغاء الأحزاب والانتخابات ، والعمل بموجب قرارات أو مراسيم ، لمدة ثلاثة اشهر ، ثم ستة اشهر ، ثم سنوات وسنوات . وفي كل حالة يجد النظام من يبرر له إجراءاته عن طريق « فلاسفة » قادرين على إقناع الناس ، او ارغامهم على الاقتناع ، بانهم يعيشون في ظل شرعية من نوع جديد ، شرعية « ثورية » تتضاءل الى جانبها المفاهيم « العتيقة » للشرعية .

هكذا فعل هيكل ، وهكذا فعل كثيرون غيره من منظّري الحكم التسلطي اللاديمقراطي ، ولكن حساب التاريخ لهيكل سيكون اشد عسرا ، لأنه كان اكثر من الآخرين ذكاء ووعيا ، ولأنه ادرك حقائق الأوضاع في لمحات سريعة في كتابه الأخير ، ولكنه سرعان ما عاد الى طريقه المألوف ، طريق العداء للديمقراطية المرتكزة على أساس شعبي والمعبرة عن الارادة الحقيقية للجماهير .

الفصل السادس

ورثــه مصــر، ونسي!

الفصل السادس

ورّثه مصر، ونسي!

في كتاب هيكل عن السادات نقطتان تتسمان بالضعف الشديد، مرّ عليهما المؤلف بتعجل وبغير تحليل مقنع، وإنما حاول أن يقدم لهما تعليلات أدت في الواقع إلى زيادة موقفه ضعفا. هاتان النقطتان تأتيان عند بداية علاقة السادات بعبد الناصر والثورة المصرية، وعند نهاية عهد عبد الناصر واختياره أنور السادات لخلافته. فكيف يصف هيكل هاتين اللحظتين الحاسمتين: لحظة انضمام السادات إلى تنظيم الضباط الأحرار، التي حصل فيها على جواز المرور الى تاريخ مصر، ولحظة تعيين عبد الناصر للسادات نائبا به، قبل وفاته بوقت قصير، وهي اللحظة التي ضمنت له دخول هذا التاريخ من أوسع أبوابه؟

يقول هيكل في «خريف الغضب»: «في اواخر سنة ١٩٥١ أصبح أنور السادات عضوا في تنظيم الضباط الأحرار. وقد كان كل أعضاء اللجنة التأسيسية للتنظيم يعارضون انضمامه باستثناء جمال عبد الناصر. كانوا يعرفون السجل بطبيعة الحال.. وكان عبد الناصر يعرف يقينا بكل هذه الوقائع».

ما هي هذه الوقائع التي أدت بأعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار الى رفض انضمام أنور السادات الى تنظيمهم ، والتي أصر عبد الناصر على قبوله في التنظيم على الرغم من معرفته اليقينية بها ، وعلى الرغم من معارضة جميع أعضاء اللجنة الآخرين لهذا القبول ؟ كانت هذه الوقائع ، كما شرح هيكل في كتابه بإسهاب ، تشمل : الانضمام الى الحرس الحديدي الذي كان يخدم أغراض الملك ـ السعي إلى تخليص الملك من أقوى خصومه السياسيين بالتصفية الجسدية ـ الاتصال برجال القصر وعلى رأسهم « يوسف رشاد » وتلقى رشوة مقدارها ألف جنيه من هذا الأخير « لكي يؤسس بيتا ويشتري سيارة ، ويبدأ حياة جديدة » وغيرها من الوقائع المثيرة للارتياب .

كيف إذن أصرّ عبدالناصر على قبول السادات في التنظيم، وتحمّل بذلك مخاطرة ان يوصف بالدكتاتورية لأنه رجّح صوته الوحيد على أصوات جميع الأعضاء الآخرين الرافضين ؟ يقدم هيكل في هذا الصدد.ما يسميه « اجتهادات » يحاول بها تفسير هذا الاصرار وهي اجتهادات لا تفسر في الواقع شيئا ، بل يمكن الرد عليها بسهولة تامة . فمن الجائز أن عبد الناصر اراد معرفة اخبار القصر مستغلا علاقة السادات بيوسف رشاد . ولو صح هذا التعليل لكان من الواجب ان يُبعد السادات عن التنظيم بمجرد نجاح الثورة وإغلاق القصر وطرد صاحبه من البلاد ، فما فائدة الاحتفاظ بعميل سابق للقصر بعد ان انتهت مهمته ؟ ومع

ذلك فإن السادات لم يكن أول من خرج من اعضاء مجلس الثورة ، وإنما خرج الجميع وبقي هو !

وينطبق هذا الكلام نفسه على التعليل الآخر الذي قدمه هيكل ، وهو تضليل القصر من أخبار الضباط الأحرار من خلال الصلة السابقة نفسها . ففي هذه الحالة أيضا دان من الواجب ان تنتهي مهمة السادات بمجرد نجاح الثورة .

أما تعليل عبد الناصر نفسه ، كما رواه لهيكل فيما بعد ، فهو « أردت ان أضع في إطار الحركة كل هؤلاء الضباط الذين اقترن اسمهم بالعمل السياسي في مصر » . هنا أيضا نجد أنفسنا غير مقتنعين : هل أي ضابط اقترن اسمه بالعمل السياسي يمكن ان يقبل في التنظيم ، حتى لو كان العمل السياسي الذي مارسه عمالة مزدوجة وخدمة لأهداف القصر ، أي بكلمة واحدة ، حتى لو كان هذا العمل السياسي « خيانة » ؟ لو افترضنا ان حاجة التنظيم في بدايته الى عناصر نشطة وممارسة كانت هي التي أرغمت عبد الناصر على قبول شخصية مثيرة للشبهات كهذه ، فإن هذه الحاجة تنتهي تماما بمجرد ان ترسخ أقدام التنظيم ويصبح هو الذي يحكم مصر بلا منازغ . ويبدو أن أعضاء مجلس الثورة قد نظروا الى الأمر على هذا النحو بدليل قول هيكل ان هؤلاء الأعضاء ، بعد يوليه ١٩٥٢ مباشرة ، « تجددت شكوكهم فيه ، بل وبدأ معظمهم يوجه اليه في حضوره بعض الملاحظات الجارحة ، ولكن عبد الناصر كان يحميه . »

هناك اذن سر في موضوع دخول السادات في تنظيم الضباط الأحرار ، واستمرار عضويته فيه بعد ان انتفت الأسباب التي يقال انها هي التي دعت الى قبوله . ولا تقدم الينا رواية هيكل اي تعليل مقنع لهذا السر ، بل إنها تترك الموضوع عائما ، وتكاد توحي بان عبد الناصر كان لديه ميل خاص ، غير مفهوم ، إلى السادات ، على الرغم من علمه بتاريخه .

تلك إذن لحظة حاسمة في تاريخ السادات ، وفي تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، تركها هيكل غير مفهومه ، فهل كان هيكل يستخف باهمية هذه اللحظة ، حين قدم تعليلاته غير المقنعة ، أم كان يخفي شيئا لا يريد ان يعلن عنه ، ام كان يستخف بقدرة القاريء على الشك والتساؤل ، أم كان ـ أخيرا ـ يؤمن بحق عبد الناصر المطلق في ان يفعل ما يشاء بغير أسباب ؟

لنترك هذه اللحظة مؤقتا ، ولننتقل الى لحظة أخرى اهم منها بكثير ، لحظة كانت مصيرية بحق ، هي تلك التي قرر فيها عبد الناصر ان يعين السادات بالذات ، ومن دون أبناء مصر الذين كانوا عندئذ يزيدون عن الثلاثين مليونا ، ليكون نائبا لرئيس الجمهورية ، وخليفته في حكم مصر .

ونستمع ، مرة أخرى ، الى ما يقوله هيكل

في فصل بعنوان « في ظل عبدالناصر » ، يقول هيكل :

« كان طبيعيا أنه حين تعرض عبدالناصر للنوبة القلبية الأولى في سبتمبر ١٩٦٩ أن يضع السادات على رأس لجنة تضم بعض القريبين منه وتتولى تسيير شئون الدولة في غيابه . وعلى أي حال فإن هذه اللجنة لم يقدر لها أن تباشر عملا حقيقا . فما لبث عبدالناصر ان نسي نوبته القلبية وعاد يمارس شواغله ومسئولياته . وفي ديسمبر عام ١٩٦٩ كان على عبدالناصر أن يشارك في أعمال مؤتمر القمة العربي في الرباط بالمغرب . . وعندما دعاني الى الجلوس بجانبه بعد إقلاع الطائرة كما كان يفعل دائما ، فإنه أشار الى بالجلوس وعلى وجهه ابتسامة ، وفوجئت به يقول : « هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ » ولم أكن أعرف . وقال لي : « كان أنور السادات سيمرّ عليّ لكي يصحبني الى المطار ، وطلبت منه أن يجيء معه بمصحفه . ولم يفهم ما عنيت بهذا الطلب ، وعندما جاء فقد جعلته يقسم اليمين ليكون نائبا لرئيس الجمهورية في غيابي » . وأبديت دهشتي وسألت عن السبب الذي دعاه الى ذلك ، ومدّ عبدالناصر يده الى ملف كان قد وضعه أمامه . . . وكانت فيه برقية . . . تقول إن هناك معلومات بأن الجنرال أوفقير يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في محاولة لاغتيال عبدالناصر أثناء وجوده في المغرب . . . وقد فكرت في أنه إذا فرض وصدقت المعلومات هذه المرة وحدث شيء ، فإن أنور يصلح لسد الفترة الانتقالية . . . وفي فترة الانتقال فإن دور أنور سيكون شكليا » . ثم أضاف

عبدالناصر : « إن الاخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية إلا أنور ، ولعله دوره الآن . . . وعلى أي حال فهي فترة أسبوع على أرجح الأحوال » .

وتلا ذلك حديث طويل عن شواغل عبدالناصر الكثيرة خلال الفترة التالية ، تخلله حديث آخر عن فضيحة ارتكبها أنور السادات « وكان يمكن أن تكلفه منصبه كنائب رئيس الجمهورية ، وتغير بالتالي مجرى تاريخ مصر الحديث » ، وهي استيلاؤه بالقوة ، وعن طريق قرار جمهوري ، على قصر في الهرم كان يملكه ضابط سابق اشتغل بالأعمال الحرة . ثم حانت ساعة موت عبدالناصر . « كان السادات لا يزال حتى ذلك الوقت هو نائب الرئيس رسميا . وبكل الشواغل التي ألحت على العمل الوطني ، من مؤتمر الرباط الى زيارة موسكو السرية الى استمرار حرب الاستنزاف الى مبادرة روجرز الى المواجهة بين الملك حسين والثورة الفلسطينية في الأردن ، فإن وضع أنور السادات كنائب للرئيس كان قضية منسية حتى وان كان قد خطر للبعض - بمن فيهم جمال عبدالناصر نفسه - أن الأمر قابل لاعادة النظر فيه . وهكذا بقي أنور السادات في مكانه حتى هذه اللحظة الحزينة » .

معذرة ، أيها القارىء العزيز ، على هذا الاقتباس الطويل ؟ ولكن هذه اللحظة التي يصفها هيكل ، هي اللحظة التي يجد فيها مناسبة لاستعراض مكانته (أجلسني بجانبه كما

كان يفعل دائما) ، والتي تحدث فيها عبدالناصر الى هيكل بابتسامة وفاجأه بسؤاله الذي يحمل معنى الدعابة . هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ هذه اللحظة التي قدرت مصير مصر ، ومعها الأمة العربية ، حتى يومنا هذا . في هذه اللحظة بدأت المسيرة المشئومة المؤدية الى زيارة القدس ، والصلح والتطبيع ، وترك لبنان والفلسطينيين لمخالب الوحش الصهيوني ، والانفتاح ، ونهب مصر ، ووصاية البنوك الدولية والأمريكية على اقتصادها . . . هذه اللحظة التي يعرضها هيكل باستخفاف شديد ، بل وينتهز الفرصة للتفاخر بذاته وبقربه الدائم من الرئيس ، هي التي فتحت الطريق لكوارث مصر والعرب في السبعينات ، ولهذا اقتبستها من كتاب هيكل بالتفصيل .

ولكنني لم أقتبسها فقط لكي أبينّ التضاد المحزن بين جو الخفة والسهولة الذي كان يضعه هيكل في سطوره ، وبين شبح المصير المأساوي الذي يطل من بين سطور هيكل ، ساخرا من القارىء ومن هيكل ، ومن عبدالناصر ، بل من الأمة العربية جمعاء . . . كلا ، لم أقتبسها لغرض كهذا فقط ، وإنما اقتبسها لكي أشرك معي القارىء في محاولة طويلة لاستخلاص المعاني البشعة التي تنطوي عليها هذه السطور .

أول هذه المعاني هو البساطة العجيبة التي اتخذ بها قرار خطير كهذا ونفذ على الفور : عبدالناصر يطلب الى السادات أن يجيء معه بالمصحف أثناء مروره عليه ليصحبه الى المطار . السادات لا

يعرف السبب ، ولكن المفاجأة تنتظره ، يقسم اليمين ، وبذلك يتحدد من سيكون رئيس جمهورية مصر القادم .هيكل نفسه لم يكن يعرف ، ولكن يتضح أن السبب هو تقرير عن مؤامرة محتملة في المغرب لاغتيال عبدالناصر ، مؤامرة لم ينظر اليها عبدالناصر بجدية ، ولكن لا بأس من الاحتياط ! هكذا ، بلا استشارة حتى من أقرب المقربين ، يحدد الحاكم من سيخلفه في حكم بلاده في مرحلة من أحرج المراحل التي مرت بها طوال تاريخها الحديث ، ويقرر بذلك مصير أمته من بعده . لست أدري ماذا يكون شعور القارىء حين يقرأ هذه السطور ، ولكنني أقول عن نفسي إنني شعرت بالاهانة حين وجدت مستقبلي ، ومستقبل أبنائي وبلدي ، يحدد بمثل هذا الاستخفاف ، دون أن تكون لي ، كمواطن ، كلمة ولا رأي ، ودون أن يصل صوتي عن طريق القنوات التي صاغتها تجارب طويلة للشعوب ، تتيح للناس في المجتمعات التي تحترم مواطنيها أن يختاروا من سيتحمل مسئولياتهم في مستقبل الأيام .

ولكن لدى هيكل ، بالطبع ، إجابة جاهزة . إنه يقول للقارىء : لم يكن هناك عندئذ ما يدعو الى الانزعاج ، ولا حتى الى الاهتمام ، فقد كانت المسألة مؤقتة ، لن تطول أكثر من أسبوع ، وكانت مجرد احتياط من أن تقع مؤامرة الاغتيال في المغرب ، وكل ما في الأمر هو أن السادات قد خدمه الحظ ، طوال السنوات التالية ، لأن عبدالناصر وضعه على كرسي الخلافة

ونسي أن يبعده عنه ـ وهو معذور في هذا النسيان ، فقد كانت الأحداث جساما ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتذكر هذا الموضوع التافه ، موضوع تعيين السادات خليفة له في حكم مصر !

مرة أخرى ، لست أدري ، ماذا يكون شعور القارىء وهو يستمع الى حجة هيكل هذه ، ولكنني أقول عن نفسي انني شعرت بإهانة أخرى اهانة لعقلي وتفكيري وآدميتي يوجهها اليّ واحدا من اولئك الذين عاشوا طويلا في جو الاستخفاف بعقول الناس والاستهانة بهم .

فحسب أقوال هيكل نفسه ، وقع اختيار عبدالناصر على السادات لتسيير شئون الدولة مرتين ، لا مرة واحدة . الأولى عند اصابته بنوبة قلبية ، والثانية عندما قرأ تقارير الأمن عن المؤامرة المغربية الأمريكية المحتملة . وهذا معناه أن الاختيار لم يكن ، عشوائيا على الاطلاق ، بل كان متعمدا مقصودا . ولا شك أن الاصابة بنوبة قلبية هي إنذار كاف لأي انسان ، أي أن احتمالات النهاية لابد أن تكون قد طافت ، ولو من بعيد ، بذهن عبدالناصر . وعلى ذلك فحين يختاره خلفا له ، فإنه يعلم أن هذا يمكن أن يكون اختيارا لمستقبل بلاده . وحتى لو كانت مؤامرة المغرب مجرد اشاعة ، فانها تستدعي اختيار أصلح العناصر للخلافة ، على سبيل الاحتياط أيضا .

ولكن الكارثة الكبرى في الموضوع أنه تكمن في نقطتين

الأولى هي قول عبدالناصر : « إن الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية إلا أنور ، ولعله دوره الآن » . . إذن كان حكم مصر « بالدور » . . . مجموعة الضباط الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة ، يتناوبون على المنصب الخطير واحدا بعد الآخر ، وفي النهاية ، وفي لحظة مرض القلب والتهديد بالاغتيال ، بقي واحد منهم ، فلابد إذن أن يأخذ نصيبه ـ ونصيبه هو أن يكون خليفة لحاكم مصر .

إنني لا أشك لحظة واحدة في ذكاء هيكل الذي كان بالفعل غير عادي . ولكن الأمر الذي يذهلني بحق هو : كيف فات على هيكل ، بكل ذكائه ، المغزى الواضح والصارخ لهذا الكلام ؟ كيف يعجز هيكل الموهوب عن أن يدرك أنه ، بكلامه هذا ، يسيء الى عبدالناصر أبلغ إساءة ، ويهين مصر كلها إذ يصوّرها على أنها « عزبة » لابد أن يتناوب على امتلاكها مجموعة الضباط هؤلاء « بالدور » ؟ فكّر جيدا أيها القارىء في المقياس الذي يتم على أساسه الاختيار : ليس الكفاءة ، التي لم يثبت السادات خلال حكم عبدالناصر ـ حسب كلام هيكل ـ شيئا منها ، وليس الوطنية ، فقد كان عبدالناصر وهيكل يعلمان أنه كان في وقت ما عميلا مزدوجا ، وليس وجود برنامج لانقاذ الوطن لديه ، فقد كان بشهادة هيكل عاكفا عن حياته الخاصة ، عزوفا عن القراءة والاطلاع وتثقيف نفسه ، وإنما المقياس هو أنه الوحيد الذي لم ينل بعد نصيبه من الفطيرة . . . هو أن « عليه الدور » !

أما الكارثـة الثـانية ، في هذه القصـة الحزينـة ، فهـي أن عبدالناصر ، بعد أن وضع السادات في هذا المنصب الخطـير ، تركه فيه لأنه « نسي » . هكذا يريدنا هيكل أن نصدق أن شيئا بالغ الأهمية كهذا يمكن أن ينسى بمثل هذه السهولة . ولكي يبرر لنا هذه الحجة الهزيلة يعدد أمامنا المشكلات التـي انشغـل بهـا عبد الناصر خلال الفترة التي كان السادات فيها « منسيا » في منصب الرجل الثاني في مصر . لقد كانت تلك مشكلات خطيرة حقا ، ولكن خطورتها ذاتها كانت تفرض على عبد الناصر أن يزداد تذكرا لموضوع خلافته ، لا أن ينساه . فالسادات أمامه كل يوم ، وهو بالقطع لم يحصل على قرار التعيين نائبا لرئيس الجمهورية ثم أسرع يختبيء في مكان بعيد ، داعيا الى الله أن ينساه الرئيس الى أن يموت ! وخطورة المشكلات التي كان يواجهها عبد الناصر هي ذاتها أقوى مبرر لكي يتذكر في كل لحظة أن الوطن في خطر ، وأن من يخلفه في حمل الأمانة ينبغي أن يكون على مستوى المسئولية

وحتى لو لم تذكّره بموضوع الخلافة تلك الأحداث الجسام ، فإن تصرفات السادات ذاتهـا لابـد أنهـا أدت الى تذكيره بنـوع الاختيار الذي قام به : فقد حدثت فضيحة القصر الذي استولى عليه السادات ، بإلحاح من زوجته ، من ضابط سابق اشتغل في الأعمال الحرة (لا أدري من أين استولى عليه هو الآخر ، أو من أين أتته الأموال لشرائه) ـ حدثت هذه الفضيحة « بعد » تعيين السادات نائبا للرئيس ، وحسـب رواية هيكل فإن عبدالنـاصر

غضب غضبا شديدا عندما علم بما حدث ، ومع ذلك فإن هيكل يذكر ، بطريقة غير مفهومة ولأسباب غير واضحة ، أن عبدالناصر عندما هدأ غضبه كافأ السادات بقصر على النيل ! وهكذا فإن عبدالناصر ، كما يصوره لنا هيكل ، تلقى إنذارا واضحا بنوع السلوك الذي يمكن أن يسلكه السادات عندما يترك له حكم مصر . فاذا لم تكن المشكلات الدولية والقومية والوطنية الخطيرة التي كانت تشغل عبدالناصر ، عندئذ ، كفيلة بأن تذكره بضرورة اختيار خليفة وطني قادر على التصدي لها ، ألم يكن اغتصاب السادات لبيت لا يملكه ، لمجرد انه أعجب زوجته ، كافيا لكي ينبه عبدالناصر الى عيوب الرجل الذي ائتمنه على امته كلها من بعده ؟ ومع ذلك فإن عبدالناصر ، حسب رواية هيكل ، كافأ السادات بقصر على النيل بعد فترة غضب قصيرة . . . أيريد هيكل أن يوحي لنا بأن تصرفات مثل الاستيلاء على بيوت الآخرين لم تكن تصدم الحس الأخلاقي لعبدالناصر ؟ أيريد أن يقنعنا بأن مغتصب مال الغير كان في نظره يستحق مكافأة ـ مكافأة عاجلة هي قصر على النيل ، ومكافأة آجلة هي النيل كله ، بأرضه وشعبه ؟

ولنتأمل تناقضا آخر : لقد كان عبدالناصر ، عندما عين السادات نائبا له ، يتحوط ضد مؤامرة تشترك فيها عناصر مغربية وتدبرها المخابرات المركزية الأمريكية . ولكن عبدالناصر كان ، من جهة اخرى ، يعرف أن للسادات ميولا أمريكية قوية .

وحسبنا دليلا على هذا أن نشير إلى مقال كتبه السفير الأمريكي الأسبق في مصر ، لوشيوس باتل ، تحدث فيه عن رحلة رتبها السادات وزوجته عام ١٩٦٦ ، وعاد بعدها السادات مبهورا بكل ما هو أمريكي . ويهمنا في المقال اشارة الكاتب الى أن عبدالناصر ، عندما قابله بعد ذلك في إحدى الحفلات ، قال له : « صاحبكم هذا ، أنور السادات ، محب ولهان لأمريكا » ، فلما قال له السفير : وما العيب في ذلك ؛ ليته كان هناك آخرون لديهم نفس الاتجاه في هذا البلد ضحك عبدالناصر ، « ولكن كانت هناك دائما مسحة من الاستخفاف في تعليقاته »[1]. وبطبيعة الحال فإن مسلك السادات تجاه أمريكا خلال سنوات حكمه تجعلنا لا نشك لحظة واحدة في صحة هذه الرواية . ولكن ، كيف يكون عبدالناصر على علم بميول السادات الأمريكية القوية طوال هذا الوقت ، ثم يختاره نائبا بسبب مؤامرة أمريكية محتملة ؟ هل يقبل الأب الذي يتعرض للتهديد بالقتل من أفراد عصابة معينة ، أن يختار أحد هؤلاء الأفراد وصيا على أبنائه من بعده ؟

إن قصة خلافة السادات لعبدالناصر ، والاختيار المشئوم الذي حدث في أحد الأيام ١٩٦٩ ، هي قصة فريدة من نوعها . ولقد كانت الرواية التي أوردها هيكل عنها مليئة بالمتناقضات

1) Lucius D. Battle: Anwar Sadat Remembered. SAIS REVIEW. Winter 1981 — 1982, No. 3.

والمفارقات التي تستخف بعقل القارىء وتهين ذكاءه ، ولا أظن أن احدا ، حتى هيكل ذاته ، يمكن أن يقتنع بهذه الرواية المهلهلة . وهنا يبرز سؤال هام : إذا كان تفسير هيكل لاختيار عبدالناصر للسادات مكشوفا في ضعفه الى هذا الحد ، فما الذي جعله يلجأ اليه ؟

أغلب الظن أن هيكل اضطر الى ترويج هذا التفسير الهزيل لأنه وجد نفسه أمام سؤال محرج ، تسأله تلك الأجيال الشابة الجديدة التي تنظر الى عبدالناصر على أنه أعلى نماذج الوطنية ، والتي رأت بنفسها ما لحق بمصر والعرب من انهيار في عهد السادات . هذا السؤال هو : كيف اختار زعيم كبير كعبدالناصر خليفة مختلفا عنه في كل شيء مثل أنور السادات ؟ ومما يزيد هذا السؤال تعقيدا ، أن هيكل أكد بصورة قاطعة أن عبدالناصر كان يعرف كل شيء عن السادات : كان يعرف ماضيه مع القصر ، وميله الى الاستمتاع بحياته بكل الطرق في حاضره ، وانبهاره بالأمريكان ، أعداء الوطن العربي الألداء منذ عام ١٩٦٧ على الأقل . وإذن يعود السؤ*ال بإلحاح : كيف يقبل زعيم وطني أن يأتمن شخصا مناقضا له في كل شيء على وطنه من بعده ؟ من أجل محاولة الاجابة على هذا السؤال المحرج ، اضطر هيكل إلى أن يتحدث عن تعيين نواب رئيس الجمهورية « بالدور » ، وعن « نسيان » الرئيس لنائبه في مكانه الى أن خلفه بعد موته . أعني ، بالاختصار ، اضطر هيكل إلى أن يلفق إجابة لا تقنع أحدا .

وفي اعتقادي ، أولا ، أن هذا سؤال خطير وجوهري ينبغي ألا يقابل بأي استخفاف ، لأنه يتعلق بمصير الأمة العربية كلها ، الذي قامر به السادات على مائدة أمريكا بعد أن أعطاها ٩٩٪ من أوراق اللعبة ، ومن ثم فلابد أن نلح في المطالبة بتفسير له . وفي اعتقادي ثانيا أن من المستحيل تقديم اجابة مقنعة عن هذا السؤال في أطار الموقف الذي يمثله هيكل : أعني موقف الدفاع على طول الخط عن عبدالناصر ، والهجوم على طول الخط على السادات . فلكي نجيب عن هذا السؤال الحيوي إجابة مقنعة ، لابد أن نكون أكثر تعمقا في تحليلنا من أن نتقيد بهذا الاستقطاب الناصري ـ الساداتي . وسأقوم ، من جانبي ، بمحاولة لتفسير هذه الظاهرة التي تبدو مستعصية على الفهم ، آملا ان ينظر القارىء الى هذا التفسير على أنه حافز للتفكير ، من حقه أن يقتنع به أو لا يقتنع ، ولكن من واجبه أن يفكر فيه بإمعان .

إن الزعيم الذي يحكم حكما غير ديمقراطي لا يقبل بجانبه إلا الأعوان الذين يطيعون ، وينحنون ، ولا يعارضون . وحين يسود الطابع الفردي في الحكم ، يظل الأعوان المحتفظون بكرامتهم والمتمسكون بآرائهم ومواقفهم ، أو حتى اولئك الذين يخالفون الزعيم لمصالح شخصية ، يظل هؤلاء يستبعدون واحدا بعد الآخر ، حتى لا يبقى في النهاية الا الرجل الذي يقول دائما : نعم . ولقد اقترب هيكل من الحقيقة دون أن يشعر حين قال ، في نفس الفصل الذي اقتبسنا منه من قبل : « كما حدث من قبل ، وكما سيحدث فيما بعد ، فإن طبيعة أنور السادات

المستعدة للخضوع أمام الأقوى كانت هي التي حكمت موقفه . كانت أحسن أيام هي تلك التي كان يستطيع فيها أن يلتصق بشخصية قوية » واذا كان هيكل قد قصد بهذه الشخصية القوية ، في كلامه السابق ، المشير عبدالحكيم عامر ، فإن هذا الحكم يمكن أن ينطبق على مسلك السادات بوجه عام ، وإن كان ذلك المسلك في نظرنا واعيا متعمدا ، وليس مجرد تعبير عن شخصية مياله للخضوع والالتصاق بالأقوياء .

كان السادات أذكى من الجميع لأنه أدرك قانون اللعبة : اترك الزعيم يمارس قوته وإياك أن تقول له « لا » مهما فعل . ولكن ما ينبغي أن نتذكره هو أن هذا القانون يحتاج الى طرفين : طرف يلتزم بالقبول والخضوع ، وطرف آخر ـ هو الزعيم ـ يجعل مقياس قرب الناس منه هو مدى خضوعهم له ، ومدى تخليهم عن إراداتهم الخاصة لكي يكون هو صاحب الارادة الشاملة . فلكي ينجح « الأذكياء » ممن يجيدون فن طأطأة الرأس (حتى يعلو فيما بعد ، كما تقول أغنية سيد درويش المشهورة) ، لابد أن يكون الطرف الآخر الذي يتعاملون معه من ذلك النوع الذي لا يستطيع أن يتحمل أي شخص أن يبدي استقلالا في رأيه . ولذا كان من المستحيل أن ينجح « أهل الطأطأة » مع أي زعيم ديمقراطي .

وليتأمل القارىء دلالة العبارة التي يقول فيها هيكل : « كان بيت السادات في الهرم هو المكان الوحيد الذي يستطيع فيه جمال

عبدالناصر أن يذهب لكي يقضي بين حين وآخر ساعات مع صديق لم يكن يضغط على أعصابه بإثارة مناقشات سياسية أو عسكرية ملحة » . هكذا كانت « الراحة » هنا تكمن في أن يكون الصديق مطيعا لا يناقش في الأمور الهامة ، بينما الذين كانوا يناقشون ، ويعارضون ، في ظروف ما بعد هزيمة ٦٧ التي كانت تقتضي إعادة النظر في كل شيء ، هؤلاء لم يكونوا « مريحيني » .

وهكذا نصل الى القاعدة الهامة التي تحكم عملية الخلافة على السلطة في الحكم غير الديمقراطي : إن الحكم ، نتيجة لانفراده بالسلطة ، يشعر بأهمية القوة ويستأثر بها ، وبالتالي لابد أن يزيح من طريقه كل من يحاول الحدّ من هذه القوة عن طريق المعارضة ، وكل من يرفض انفراده بالقرار ، وهكذا يكون الضعيف الراضخ ، هو الذي يبقى في النهاية بعد سلسلة التصفيات . وبعبارة أشد وضوحا ، فإن ظاهرة السادات إفراز طبيعي للحكم المطلق ، وأسلوب الحكم الذي انتهجه عبدالناصر كان لابد أن يؤدي في النهاية الى خليفة مثل أنور السادات .

وهنا تتضح لنا صفة تبدو على قدر كبير من الغرابة ، ولكنها تفسر الموضوع الذي نحن بصدده تفسيرا كاملا : فالحاكم القوي يؤدي في هذه الحالة ـ بصورة حتمية ـ الى الحاكم الضعيف ، والمتشدد أمام قوى الاستعمار في الخارج والطبقات العليا في

الداخل يفرز المهادن للاستعمار ، الذي يستسلم أمام الطبقات العليا ويسير في ركابها . وبعبارة أخرى فإن كل مظاهر الاختلاف بين عبدالناصر والسادات لا تتعارض مع كون الثاني استمرارا للأول ونتيجة طبيعية له . هذه حقيقة ينبغي أن نتنبه اليها جيدا : إذ أن من يسمع أحدا يتحدث عن وجود استمرارية بين عبدالناصر والسادات ، يتصور أنه يقصد وجود تشابه بين العهدين فقط ، ولكن حقيقة الأمر أن هناك استمرارية مع التضاد : أعني أن يكون الحاكم المهادن والمستسلم هو الامتداد الطبيعي للحاكم القوي المتشدد ، على الرغم من كونه نقيضا له ، بل « بسبب » كونه نقيضا له .

هذا هو التفسير الذي أعتقد أنه هو وحده القادر على الاجابة عن ذلك السؤال المحرج ، المحيّر ، الذي طرحناه من قبل ، وأعني به : كيف يمكن أن يختار الحاكم الوطني ، بنفسه ، خليفة غير وطني ، يأتمنه من بعده على أمته وهي تمر بأخطر مراحل حياتها ، وتسعى بمشقة شديدة الى التخلص من براثن عدوان جاثم على صدرها ؟ فلنقل إن هذا ، على الأقل ، هو اجتهادي ، ومن حق أي شخص أن يعترض عليّ ، ولكنه سيكون ملزما بأن يقدم تفسيرا أفضل ، يعلل جوانب الظاهرة كلها . وكل ما آمله هو أن لا يبلغ به الاستخفاف بعقولنا حداً يجعله يكرر شيئا مما قاله هيكل في هذا الموضوع . .

وسواء أكان التفسير الذي أقدمه مقبولا أم غير مقبول ،

فليتذكر القارىء دائما أن الهدف من هذا الحديث الطويل ، بل من كل ما قلته وسأقوله في هذه المقالات ، ليس إحراج هيكل ، ولا انتقاد السادات أو عبدالناصر ، وإنما هو قبل كل شيء دعوة الى التفكير في ذلك الجو العام الذي عاش فيه كل من شارك في مأساة العرب خلال العقود الأخيرة .

ذلك الجو الذي يسمح للحاكم أن يختار خليفته بأكثر الطرق عشوائية ، وكأنه يغير لونا لملابسه ويستبدل به لونا آخر ، دون أن يستشير أحدا ، أو يحتكم الى شعب ، أو حتى أن يسأل صديقا مقرّبا . . .

ذلك الجو الذي يتم فيه للحاكم اختيار خليفته وهو على علم تام بسجله الطويل غير المشرّف ، بعد أن تجمعت النذر التي توحي الى الحاكم بأن نهايته يمكن أن تحين . . .

ذلك الجو الذي يكون فيه معيار اختيار حاكم المستقبل هو أن « عليه الدور » وأنه مطيع ، مريح ، لا يجادل ولا يناقش ، أي بالاختصار ، بحث الحاكم الموجود عن راحته هو ، بدلا من تفكيره فيما يمكن أن يحدث لأمته في مستقبلها المحفوف بالأخطار ، لو تولى أمورها خَلَف من هذا النوع . . .

ذلك الجو الذي يختار فيه الحاكم خليفته ثم « ينسى » ، ويمتد به النسيان شهرا وراء الآخر ، في أحرج فترات التاريخ ، حتى يموت ناسيا . . .

وأخيرا ، ذلك الجو الذي يسمح لكاتب بأن يروي لنا هذا كله دون أن تطرف له عين ، ودون أن يرى فيه أي خطأ ، بل يحكي قصة التلاعب بمصير أمة وكأنها حكاية مسلية ، ويجد مع ذلك من يدافع عنه ، ويصفق له ، ويعامله كما لو كان شهيدا للحرية والديمقراطية .

إنها قصة حزينة ، وأشد جوانبها مدعاة للحزن هو أن كل الأطراف فيها مدانون ، وكلهم يسهمون في تلك الجريمة الكبرى التي لم ترتكب النظم اللاديمقراطية ما هو افظع منها - جريمة هدم العقول .

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الانطباع الذي يقدمه الينا هيكل عن علاقته بالسادات هو أنه كان شديد القرب منه في السنوات الأولى من حكمه ، ثم اختلف معه بعد عام ١٩٧٤ ، في الوسائل أولا ، وبعد ذلك في الغايات والأهداف العامة ، وهو لا يدع لنا أي مجال للشك في التوحد بينه وبين السادات خلال تلك السنوات الأولى . « كنت شديد التعاطف مع السادات كإنسان » . . . « في السنوات الأربع الأولى كنت أقرب إليه من أي إنسان آخر » . « كانت هناك فتحة في علاقاقتنا توحدت فيها مقاصدنا . . فكلانا كان يطلب سلاما قائما على العدل في الشرق الأوسط ، وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة ، والعالم العربي موحدا وقويا . »« أعتقد أنني لعبت دورا مؤثرا . . في المداولات والمشاورات السياسية التي أدت الى اختيار السادات رئيسا للجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر » .

هذه الاعترافات ليست ، في الواقع مقصودة لذاتها ، بل إن الهدف منها هو أن يرد هيكل ، في الصفحات الأولى من كتابه ، على ذلك الاعتراض الذي يمكن أن يوجهه أكثر الناس سذاجة إلى هيكل حين يقرأ ما كتبه عن السادات في « خريف الغضب » : كيف تهاجم السادات إلى هذا الحد مع أنك كنت من أقوى دعائم حكمه ؟ وهكذا قرر هيكل ، بذكاء شديد ، أن ينزع مخالب القارىء المعترض منذ البداية ، ويقول له في الصفحات الأولى : نعم ، لقد كنت قريبا جدا منه ، ولكن طريقانا قد افترقا فيما بعد لأسباب متعلقة بالمبادىء السياسية .

هذا اعتراف يؤدي ، إذا ما صدّقه القارىء ، إلى استبعاد أية شبهة للتناقض بين مواقف هيكل القديمة والجديدة ، وإلى تجريد سلاح كل من يحاول الإشارة إلى الاندماج والانسجام التام الذي كان قائما بين هيكل السادات في وقت من الأوقات ، وإلى إعطاء هيكل كل الحق في هجومه المتأخر على السادات ، بعد أن كان من أقوى أنصاره .

ولكن ، هل يفلح هذا الدفاع حقا في تبرئة هيكل من تهمة التناقض ، والتقلب من عهد إلى عهد ؟ في رأيي الخاص أنه لا يفلح .

ذلك لأن هيكل قد ارتكب في كتابه خطأ قاتلا ، هو إشاراته الطويلة إلى الجوانب الشديدة السلبية في تاريخ السادات قبل أن

يتولى الحكم . هذه الاشارات لو كانت قد صدرت عن كاتب محايد لم يرتبط بالسادات في أي وقت ارتباطا عضويا وثيقا ، لكانت مصدرا عظيم القيمة للمعلومات عن عادات وممارسات حاكم مثير للكثير من الجدل . ولكن صدورها عن هيكل بالذات يلحق به هو ذاته أفدح الأضرار . ذلك لأننا لن نجد عندئذ عذرا نبرر به تعاطف هيكل مع السادات « كإنسان » في السنوات الأولى من حكمه ، أعني في وقت كانت فيه جميع عيوب السادات السابقة معروفة للجميع . فكيف تعاطف هيكل مع السادات كإنسان في الوقت الذي كان يعرف فيه عنه كمية هائلة من المعلومات تشينه إلى أبحد حد كإنسان ؟ إننا لو شئنا الدقة لقلنا ان ما قاله هيكل ، أخيرا ، عن طفولة السادات وشبابه والسنوات التي قضاها « في ظل عبد الناصر ، بكل ما اتسمت به من فساد ورشاوي واتصال بجهات مريبة وانتفاع من أثرياء العرب ـ كل ذلك لا يدين هيكل في تعاطفه بعد ذلك مع السادات فحسب ، بل يدين عبد الناصر في قبوله شخصا كهذا ضمن المسؤولين في حكمه ، ثم وقوع اختياره عليه هو بالذات ليكون خليفة له ، والأهم من ذلك أن هذه المعلومات تدين أسلوب الحكم الذي يسمح لشخص يتسم بكل هذه العيوب بأن يصمد طوال كافة تقلبات العهد ، ثم يصعد إلى المرتبة العليا التي لا ينازعه فيها أحد . هذه كلها أمور واضحة ، لا تشفع فيها كلمات هيكل التي حاول بها أن يخفف مرارة الحقيقة في الصفحات الأولى من كتابه .

ولكن يبدو أن هيكل لم يكن مرتاحا كل الارتياح إلى العذر الذي قدمه لقرائه ، ولم يكن مطمئنا كل الاطمئنان الى أنهم سيقتنعون به . وهكذا نراه بعد قليل يقدم عذرا آخر فيقول : « وأظن أيضا أنني لم أكن غافلا عن بعض أسباب القصور فيه ، لكنني تصورت أن أعباء المنصب ووقر المسؤولية سوف تقوي كل العناصر الايجابية في شخصيته ، وسوف تساعده في التغلب على جوانب الضعف فيها . كان في ذهني باستمرار نموذج الرئيس الأمريكي هاري ترومان ، الذي خلف فرانكلين روزفلت في مقعد الرئاسة الأمريكية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد بدا ترومان في ذلك الوقت ، وبعد روزفلت ، شخصية باهتة ومجهولة لا تستطيع أن تقود الصراع الانساني الكبير في الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة والمحققة . ولكن ترومان ، أمام تحدي التجربة العملية ، نما ونضج وأصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين في العصر الحديث . ولقد تصورت أن نفس الشيء يمكن أن يحدث للسادات » .

هنا يواصل هيكل أسلوبه في مخاطبة الناس كما لو كانت عقولهم ملغية . فهو الآن يقول ، مبررا تقلباته : نعم ، لقد كنت أعرف أن في الرجل عيوبا ، ولكني تصورت أن الحكم سيصلحه ! ما الذي يرغمك على هذا التصور يا سيد هيكل ؟ ألم يخطر ببالك الاحتمال الآخر ، والأوضح ، وهو أن الحكم والقوة ستزيده فسادا ؟ وهل كانت مجموعة العيوب التي

أحصيتها في مختلف مراحل حياته ، من النوع الـذي يمـكن أن ينصلح تحت وطأة مسؤوليات الحكم ؟ انك تتحدث عن تقوية العنـاصر الإيجـابية في شخصيتــه ، والتغلــب على عناصرهـــا السلبية . ولكنا لم نسمع منك، طوال الفصول التي تحدثت فيها عن السادات قبل توليه الحكم ، ذكرا لأي عنصر إيجابي ، فعلى أي شيء إذن كنت تعلق آمالك ؟

أما قصة روزفلت وترومان ، فهي أقبح عذر يمكن تصوره لأقبح ذنب . ذلك لأن أحدا لم يقل عن هاري ترومان إنه أصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين في العصر الحديث . فتاريخ ترومان يرتبط في الأذهان بقرار بشـع استهـل به حكمـه ، ومـا زالـت الإنسانية تلعنه من أجله حتى اليوم ، وهو قرار إلقاء القنبلتـين الذريتـين في هـيروشيما ونجـازاكي ـ وهما القنبلتـان الذريتـان الوحيدتان اللتان استخدمتا ضد البشر حتى اليوم . فهل هذا ما يقصده هيكل بعبارة « قيادة الصراع الإنساني الكبير في الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة » ؟ أما في أذهاننا نحن العرب ، فإن اسم ترومان يرتبط بتاريخ أسود ستلعنه من أجله كل أجيالنا التالية : هو القيام بأهم دور في قيام دولة اسرائيل ، والاعتراف بها بعد خمس دقائق من إعلان قيامها ، والضغط على أكبر عدد ممكن من دول العالم من أجل الموافقة على قرار الأمم المتحـدة بشأنها . فهل هذه هي الأسباب التي أصبح من أجلها ترومان ، في نظـر هيكل ، واحـدا من أعظـم رؤسـاء أمـريكا في العصر

الحديث ؟ أستطيع ، من وجهة نظري الخاصة ، أن أعطي هيكل كل الحق في تشبيهه لأنور السادات بترومان ، إذا كان المقياس الذي نتبعه هو مقدار الخدمات التي يؤديها الرئيس لدولة اسرائيل !

إنها ، إذن ، حجج لا تقنع أحدا ، تلك التي ساقها هيكل لتبرير ارتباطه الوثيق بالسادات في السنوات الأولى من حكمه ، ولم يكن اختياره أن يستخدم حججا متهافتة كهذه إلا حلقة أخرى في سلسلة التعتيم الفكري الذي يلجأ إليه أولئك الذين نشأوا ، وازدهروا ، وترعرعوا ، في ظل نظم حكم متسلطة ، لا ديمقراطية ، تستخف بعقول الناس وتستهين بذكائهم .

وحقيقة الأمر أن قصة ارتباط هيكل بالسادات أطول وأعقد من ذلك بكثير. . .

* * *

هناك شواهد كثيرة وقوية على أن حكم عبد الناصر كان يضم ، في سنواته الأخيرة على الأقل ، « أجنحة » متنافسة ومتعارضة . كان هناك الجناح العسكري الممسك بقوة الجيش ، والملتصق بالمشير عامر (شمس بدران وقادة الأسلحة المختلفة قبل ١٩٦٧) . وكان هناك الجناح التنفيذي الملتصق بعبد الناصر في عملية الحكم (سامي شرف ، شعراوي جمعة ، محمد فايق ،

الخ . . .) وكان يقود هذا الجناح علي صبري . وكان هناك الجناح الهادىء ، المتربص ، الذي يحتفظ بعلاقاته بعبد الناصر بحذر شديد ، دون التورط في ممارسات تثير المتاعب : أنور السادات ، محمود فوزي ، سيد مرعي ، حافظ بدوي . وأكاد أجزم بأن هيكل كان ينتمي إلى هذا الجناح الأخير . فالشواهد قوية على أن هيكل كان من مجموعة أنور السادات قبل أن يتولى هذا الأخير الحكم بوقت غير قصير .

ويكفي ، كمثال واحد للتدليل على ذلك ، أن أستشهد بما قاله هيكل نفسه في مقاله الذي أشرت إليه في موضع سابق : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » . فهو في هذا المقال يروي قصة اعتقال عبد الناصر لأحد المثقفين المرتبطين بهيكل في جريدة « الأهرام » ، وكيف غضب هيكل ولازم بيته أياما دون أن يفاتح عبد الناصر في الموضوع . والذي يهمنا في هذا أن أنور السادات كان هو الذي اتصل به قائلا : « ما هذا الذي تفعله ؟ إنك تترك الجو هنا لكل من يريد أن يستثير ويحرض » ثم قال : « اتصل به (بعبد الناصر) فورا وتحدث معه بنفسك ، ولا تترك المجال مكشوفا لآخرين » . وبعد يومين عاود السادات الاتصال بهيكل قائلا : « يظهر أنك جننت . لماذا تترك الأمر بينك وبينه لكل من يريد أن يتبرع بكلمة ؟ » .

هنا يظهر بوضوح أنه كانت هناك مجموعتان ، واحدة يمكن أن تحرض عبد الناصر ضد هيكل ، وأخرى حريصة على سلامة

هيكل ضد المجموعة الأخرى ، وفيها أنور السادات . ولا شك أن تطوع السادات بكل هذه النصائح إلى هيكل يدل على أنهما كانا ينتميان إلى معسكر أو جناح واحد .

وربما وصف البعض هاتين المجموعتين وصفا أيديولوجيا ، فقال ان الأولى (علي صبري) يسارية ، والثانية (السادات) يمينية ، ولكن هذا في رأيي وصف لا يصدق إلا في حدود ضيقة . فقد تعاملت المجموعة الأولى بالفعل مع السوفييت في وقت كانت مصالحهم فيه تقتضي ذلك ، وأنا أشك جدا في أن يكون هناك أي أساس أيديولوجي حقيقي لهذا التعامل . أما مجموعة السادات فكان موقفها أوضح ، هو الميل الشديد إلى الجانب الأمريكي ، وإن كان هيكل ، داخل هذه المجموعة ، أشد حذرا وأقل انكشافا بكثير من الآخرين .

وعلى أية حال فإن الأحداث التالية أثبتت صحة هذا التقسيم إلى جناحين حول عبد الناصر : إذ أن الخلافات بين الجناحين خرجت إلى العلن بعد موت عبد الناصر ، وكان فرسان المجموعة المحيطة بالسادات هم هيكل ومحمود فوزي (الذي عينه السادات رئيسا للوزراء) ، وبذل هيكل ، كما سنرى فيما بعد ، مجهودا خارقا للعادة لكي يفضح المجموعة الأخرى ويبرر إلقاء السادات بأهم أعضائها في السجون ، ولكي يثبت أن طريق السادات هو الطريق الصحيح .

وربما تساءل البعض : ما الذي كان يدعو عبد الناصر إلى أن يتعامل مع مجموعتين متنافرتين إلى هذا الحد ؟ (لاحظ أن مجموعة عبد الحكيم عامر قد تمت تصفيتها نهائيا بعد هزيمة ١٩٦٧) . وهذا سؤال يصعب الإجابة عليه ، إذ أن ما يبدو للوهلة الأولى ، ولأصحاب النوايا الطيبة ، هو أن التعامل مع مجموعتين متنافرتين يعطل وضع البرامج وتنفيذ السياسات التي كان يضعها عبد الناصر . وعلى سبيل المثال ، فإن الإجراءات الاشتراكية لن تستفيد من وجود أشخاص مثل السادات ومرعي وعثمان أحمد عثمان في قلب النظام ، ولا جدال في أن هؤلاء لم يقبلوا تلك الإجراءات إلا خوفا من عبد الناصر أو مسايرة له . وهكذا يظل السؤال قائما ، والرد الوحيد الذي أتصوره هو أن نظام الحكم كان ، بسبب عدم ديمقراطيته ، مرتكزا على القوة ، والقوة تحتاج دائما إلى توازنات . ومن المفيد ، من أجل استقرار النظام ، أن تكون هناك مجموعتان تنشغل كل منهما بالأخرى ، ويمكن ضرب إحداهما بالأخرى إذا ما تمادت في ممارسة قوتها . . . أما تأثير ذلك على مصر ، فعلمه عند الله !

* * *

ثم جاء السادات إلى الحكم ، وأصبحت الفرصة متاحة لجناحه لكي يبسط سلطته ونفوذه . وكان أول ما فعله هيكل هو أنه قام بدور رئيسي في تأكيد أحقية السادات بخلافة عبد الناصر على أساس « الشرعية » ، أي لأن عبد الناصر هو الذي اختاره

نائبا . وهكذا يقول في كتابه الأخير : « أدرنا الحملة الانتخابية للسادات في الاستفتاء على رئاسة الجمهورية (وكان المشرف عليها هو هيكل شخصيا) على أساس أنه كان الرجل الذي اختاره جمال عبد الناصر لهذا المنصب بنفسه حين أحس باحتمال خطر على حياته . »

هل ترى الخدعة أيها القارىء العزيز ؟ ألا تشعر بأن عقلك قد أهين عندما تقرأ هذا الكلام ؟ لقد أراد هيكل أن يقنعنا من قبل بأن اختيار عبد الناصر للسادات كان مجرد صدفة ، ولم يكن مقدرا له أن يدوم أكثر من أسبوع ، وكان يرجع فقط إلى أن السادات « عليه الدور » ،،وكان في ذهن عبد الناصر أن يغير قراره ولكنه انشغل ، ولم يكن بقاء السادات نائبا حتى موت عبد الناصر إلا ضربة حظ جعلت الرئيس « ينسى » هذا الموضوع . حسنا ، لنصدق هذا كله . ولكن إذا صح أن هذا هو رأي هيكل في الموضوع ، فكيف سمح لنفسه بأن يقود الحملة الانتخابية للسادات بحجة تفترض أن اختيار عبد الناصر له كان اختيارا سليما ، وحقيقيا ، وتعبيرا عن رغبته الأصيلة والدائمة ؟ إن هيكل نفسه ـ تبعا لما قال ـ لم يكن مقتنعا بهذا الاختيار العارض ، بل يبدو أنه ناقش عبد الناصر فيه ، فكيف يدير هيكل حملته على أساس أن الاختيار كان أصيلا ؟ إن المسألة لا تحتمل إلا أحد أمرين : فإما أن عبد الناصر كان قد اختار السادات لأنه كان مقتنعا به ، وعندئذ تكون قصة « الدور »

و« النسيان » قصة ملفقة (ويكون عبد الناصر ذاته قد أعطى شعبه أسوأ « هدية » لمستقبل أيامه) ، وإما أن عبد الناصر كان قد اختاره بصورة مؤقتة ، ولم يكن ينوي أن يحتفظ به إلى النهاية ، وفاجأه الموت قبل أن يعدل عن رأيه ، وعندئذ يكون هيكل قد أدار حملة السادات الانتخابية على أساس عملية غش كبرى موجهة ضد الجماهير البريئة الذاهبة إلى صناديق الاستفتاء .

* * *

إذن فقد أصبح السادات ، بفضل مؤازرة هيكل وتعاونه معه قلبا وقالبا ، رئيسا للجمهورية . ولكن الأمر لم يستتب له على الفور ، فقد كان هناك الجناح الآخر ، الذي لم يكن مقتنعا بالسادات إلا بوصفه رئيسا انتقاليا ، ولم يسكت عن ترشيحه إلا لكي يتم عبور تلك اللحظات الحرجة التي أعقبت وفاة جمال عبد الناصر بسلام . وهكذا بدأت الاختلافات والمناوشات والانقسامات ، وكان الخلاف محتدما على أشده بين الجناح الناصري التنفيذي ، الذي كان أكثر عددا وأقوى رسوخا بكثير ، وبين الجناح الساداتي ، الذي كان يتمتع بميزة هامة ، هي كرسي رئاسة الجمهورية (وهو أمر له أهميته القصوى في نظام حكم غير ديمقراطي) ، وكذلك دهاء أقطابه وحنكتهم السياسية ، وعلى رأسهم هيكل .

المهم أن الصراع أسفر في النهاية عن انتصار ساحق ، وشديد السهولة ، للجناح الساداتي على الجناح الآخر الذي كان ، رغم سيطرته على أهم مرافق الدولة ومعظم التنظيمات السياسية ، يدير دفة الصراع بقصور شديد . وبعد أن حسمت نتيجة الصراع لصالح السادات فيما عُرف بحركة التصحيح (وفيما بعد : ثورة التصحيح) في ١٥ مايو ١٩٧١ ، أي بعد ستة أشهر من اعتلاء السادات الحكم ، أصبح الطريق مأمونا ، وكتب هيكل مسجلا موقفه من هذا كله « بصراحة » . ومن المهم جدا أن نتابع هذا الذي كتبه هيكل في تلك الفترة لعدة أسباب :

أولا : أن هذه الفترة تمثل منعطفا حاسما في السياسة المصرية ، تحددت فيه بالتدريج معالم الخط المميز لحكم السادات في السبعينات وأوائل الثمانينات .

ثانيا : أن كتابات هيكل ، بما تضمنته من حماسة شديدة للسادات ، تكشف عن العلاقة العضوية الوثيقة بين الرجلين ، وتؤكد أن هذه العلاقة كانت قائمة منذ عهد عبد الناصر ، وخرجت إلى العلن عندما تخلص السادات من منافسيه .

ثالثا : أن هذا التمجيد الذي أغدقه هيكل على السادات ، حدث في وقت كان يعلم فيه من هو السادات ، وكان يعرف تاريخه الذي رواه في « خريف الغضب » ، والذي كان يمتد على مدى ثلاثين عاما ، من أوائل الأربعينات حتى أواخر الستينات .

رابعا : أن هذه الكتابات تتحدث في كثير من الأحيان عن وقائع رويت فيما بعد في خريف الغضب ، ولكنا نجد الواقعة الواحدة تصطبغ بلونين مختلفين كل الاختلاف : ساطع براق في عامي ١٩٧١و ١٩٧٢ ، وأوسود قاتم في ١٩٨٣ ، والفرق بين الاثنين ، بالطبع ، يكشف عن مستوى القيم الأخلاقية لدى أنصار مدرسة معينة في الصحافة والسياسة ، لا تجد في ارتداء الأقنعة وخلعها ، تبعا للعهود ووفقا للمصالح ، أي عيب أو نقيصة .

خامسا : أن هذه الكتابات تثير سؤالا على جانب كبير من الأهمية ، هو : إلى أي مدى كان هيكل ناصريا ؟

- يصف هيكل ، في أول مقال يكتبه بعد أحداث ١٥ مايو ، أيام الأزمة فيقول : « لقد عشت لحظة التفجير ، ومن حسن الحظ أن التدمير لم يقع ، وتلك شهادة تاريخية لأنور السادات وشجاعته الأدبية والمادية في لحظات بالغة الصعوبة والخطر . »

- « لقد كنت أول من دعاه الرئيس أنور السادات إلى بيته صباح الأربعاء ١٢ مايو ولم يستدعني بالتليفون ، كما تعود أن يفعل ، ولكنه بعث إليّ بكريمته تدق باب بيتي في الصباح الباكر . . . » (تأمّل مدى التعاون والتفاهم بين الرجلين في لحظة التحول) .

● يكتب هيكل على لسان السادات ، في حملة الدعاية الهائلة التي شنها لدعم مركزه بعد الحركة : « إن لديّ الشجاعة أن أقف أمام الملأ وأقول بأعلى صوت إنني لا أريد أن أكون رئيسا لهذا البلد وفق شروط يمليها من يدّعون أنهم ولاة الأمر عليّ . إنني أعمل بضميري ولن أعمل بإملاء أحد عليّ . وأقوى سلاح أملكه في يدي أنني لا أتمسك بأن أظل رئيسا » .

● « كان أنور السادات في هذه الساعة الحاسمة من التاريخ هائلا بأكثر مما يستطيع أن يتصور أو يصف أحد . كانت قراراته لمواجهة التطورات المفاجئة ، مزيجا مدهشا من الهدوء والحسم . »

● « كانت لحظة حاسمة في تاريخ مصر . . . وكانت لحظة رائعة نبيلة . »[(١)]

● يتحدث هيكل عن انتصار ذلك الذي قال عنه فيما بعد إنه تولى الحكم بصدفة تاريخية غير مقصودة ، فيقول : « عشنا المحنة مرتين في السنوات الأخيرة ، ولولا عناية الله مع جمال عبد الناصر مرة (يقصد أيام تمرد عبد الحكيم عامر بعد الهزيمة) ، وعناية الله مع أنور السادات مرة ثانية ـ لسقطت مصر في أعماق الظلام والخوف . »

---

(١) الاقتباسات السابقة كلها من مقال هيكل الأسبوعي « بصراحة » ، بعنوان : ماذا أقول ؟ ـ الأهرام ٢١/٥/١٩٧١ .

● يصف هيكل الحوار الذي كان يدور بين السادات وخصومه فيقول : « كان أنور السادات صادقا ، ولم يكونوا صادقين . »

● « كان أنور السادات يتصرف على سجيته . . سجية مصري أصيل مفتوح القلب والعقل معا . »

● « حدثت المعجزة في المرة الثانية التي استفقنا الآن من هولها بسبب أن مواطنا تحرك ضميره فذهب بأشرطته في الليل إلى رئيس الجمهورية يضع الحقيقة تحت تصرفه ، ثم كانت بعد ذلك شجاعة رجل في موقع المسؤولية الأولى تصرف بجرأة نادرة في لحظات خطر محيق . »[٢]

● « قال الرئيس السادات بلهجته الودودة : محمد . . . ودار بيننا نقاش طويل كان فيه الرئيس كريما وحليما كعادته . »[٣]

● « هذه المرحلة هي التي ستجعل من أنور السادات ـ بإذن الله ـ قائداً تاريخيا لشعبه وأمته ؛ لأن القيادة التاريخية مرتبة أعلى بكثير من الرئاسة مهما كان وصفها . »[٤]

● « لقد أثبت أنور السادات ذلك عمليا في معركته ضد مراكز

---

(٢) مقال : « السؤال الأول والأكبر » ـ الأهرام ٢٨/ ٥/ ٧١ (وجميع الاقتباسات السابقة من نفس المقال) .

(٣) « كيسنجر وأنا » ـ ٢٩/ ١٢/ ٧٢ .

(٤) « الخطوة الضرورية » ـ ٢٦/ ١١/ ٧١ .

القوى . كان أمامها أعزل من أي سلاح . . . وكانوا أمامه ومعهم كل أدوات السلطة في مصر . وكنسهم من فوق الأرض كنسا لأن الجماهير كانت معه . »[٥]

● ويصل الأمر بهيكل إلى حد أن يمتدح في السادات نفس المظاهر التي هاجمه من أجلها فيما بعد في « خريف الغضب » . فنشاط السادات السياسي في شبابه ، الذي وصف في « الخريف » بأنه عمالة للقصر ، وفقره العائلي الذي وصف بأنه سبب عقدته النفسية وعلة تكالبه على مظاهر الترف ، كان لهما وصف مختلف تماما في عام ١٩٧٢ :

« كان أنور السادات أكثر ما يكون أمانة حين قال : إنني أفهم ما يعانيه الشباب ، وأنا الذي خرجت من طين مصر إلى التمرد ، وإلى السجن وإلى التشرد ، ثم الى الثورة » . ويواصل هيكل كلامه قائلا : « يقول أنور السادات نفسه : كنت دائما من قاع السلم الاجتماعي في مصر . من قلب الطين ، ولقد تعلمت بمعجزة ، وعندما أتممت تعليمي وجدت أن العمل الوطني أهم بالنسبة لي من أي وظيفة مع حاجتي الشديدة إلى مرتبي . . . وجدت نفسي في السجن ، متهما بالتعاون مع الألمان ، وكان ذلك صحيحا ، ولكن تعاوني مع الألمان لم يكن من أجل هتلر وإنما من أجل مصر . »[٦]

---

(٥) « علامات على طريق طويل » ـ ٧٢/٢/١١ .

(٦) « قضية هذا الجيل » ـ ٧٢/١/٢٨ .

أما استراحة القناطر ، التي صارت فيما بعد ، مع غيرها من الاستراحات ، نموذجا للترف الذي يتمتع به السادات على حساب الشعب ، فقد قال عنها هيكل : « كنت على موعد مع الرئيس السادات في استراحة القناطر التي يفضل الإقامة فيها كلما استطاع ، لأنها تجعله بقرب الريف الذي يعتبره مصر الأصيلة ومصر الحقيقية . »[٧]

إن هذه الاقتباسات تغني عن كل تعليق . وحسبنا أن نقول إن الصفات المعنوية والأخلاقية للشخص الواحد لا يمكن أن تتغير في مرحلة واحدة من حياته . ولكننا عند هيكل نجد أنفسنا إزاء ساداتينْ ، لا سادات واحد : أحدهما كان بطلا عندما كان هيكل راضيا عنه وشريكا له ، والآخر كان منحرفا عندما حل « خريف الغضب » . ويظل السؤال الأهم ، بعد هذا كله ، هو : إذا كان لدينا « ساداتان » ، فكم هيكل هناك ؟

في الحديث السابق كله كانت هناك إشارات كثيرة إلى الصراع بين جناحين في ظل عبد الناصر ، والأمر الملفت للنظر هو أن كلا من الجناحين كان يؤكد أنه هو الذي يمثل تراث عبد الناصر على حقيقته . ولما كان هيكل قد انتمى ، بقلبه وقالبه ، إلى الجناح الساداتي في تلك الفترة ، فقد كان من المحتم أن يؤكد ، في كتاباته ، أن السادات وريث الناصرية الأصيلة ، وأنه هو

---

(٧) « على هامش التطورات الأخيرة » ـ ٢٨/ ٧/ ٧٢ .

الذي يعبر عن مبادئها خير تعبير .

فهو يقول عن حركة التصحيح : « إننا لسنا أمام بداية جديدة ، وإنما نحن على طريق الاستمرار ، وإلا وجدنا أنفسنا نقع في شرك ينصبه أعداء الثورة السياسية والثورة الاجتماعية . »(٨) ويكتب هيكل عن حوار دار بينه وبين السادات حول الناصرية فيقول : « قال أنور السادات بالأمانة كلها : إنني لا أرى طريقا آخر غير طريق عبد الناصر . »(٩) ويدافع هيكل عن ناصرية السادات الأصيلة فيقول : « عبد الناصر والناصرية لا يمكن رؤيتهما من خلال ثلاثة أو أربعة أساءوا إليه وإليها وإلى أنفسهم ، وإنما يُرى وتُرى من خلال كثيرين أحسنوا . . . أنور السادات وكان هو الذي اختاره واستخلفه من بعده ، ومع أنور السادات مئات من المعاونين والمساعدين يقودون العمل المصري في كل الميادين . »(١٠) ويدعو شعب عبد الناصر إلى الوقوف وراء السادات فيقول : « إن قيادة أنور السادات ، على طريق جمال عبد الناصر ، هي الممثل الشرعي لحركة الثورة الوطنية والقومية في المرحلة الراهنة . وظني أن هذه القيادة وتأييدها إلى آخر المدى هو العاصم الحقيقي في هذه الظروف من جاهلية اليمين المتخلف وجهل اليسار

---

(٨) « ماذا أقول ؟ » - ٢١/ ٥/ ٧١ .

(٩) « حديث عن تجربة » - ١٤/ ١/ ٧٢ .

(١) نفس المقال .

المغامر . »[11]

ولكن هيكل في الوقت ذاته كان يمهد للتغيير . وعندما كتب في نوفمبر ١٩٧٠ مقالا بعنوان « عبد الناصر ليس أسطورة » أثار ضجة كبرى لدى الفريق الآخر ، الذي كان يؤكد تمسكه بالناصرية كما وضع معالمها عبد الناصر نفسه . ولقد دار خلاف طويل بين الفريقين حول أسباب الصراع بينهما ، وهو خلاف لا يعنينا هنا أن ندخل في تفاصيله أو نصدر حكما على طرفيه ، بل إن ما يعنينا هو أن هيكل ، الذي أعلن نفسه حاميا لتراث الناصرية ، كان في تلك الفترة يقف من الناصرية موقفا يدعو إلى التساؤل عن طبيعة انتمائه إليها .

فهو قد حارب الجناح « المتطرف » ، إذا جاز هذا التعبير ، وساند الجناح المعتدل ، إذا جاز التعبير أيضا ، ثم عاد في كتابه الأخير فهاجم الجناح المعتدل أيضا . وهكذا تظل الناصرية عنده هي ما يرتبط بشخص عبد الناصر فقط ، لا بأي تنظيم معين انبثق عنها .

وعندما حارب الجناح المتطرف ، هاجمه على أسس متعددة : فهو يصف أقطاب هذا الجناح بالجهل الشديد ، إلى حد أنه يدون في أحد مقالاته محتويات شريط لجلسات تحضير أرواح حضرها هؤلاء الأقطاب ، مع أستاذ جامعي اتخذوه وسيطا ،

(١١) « علامات على طريق طويل » - ٧٢/٢/١١ .

وأخذوا فيها يسألون « الروح » عن أخطر الأمور المتعلقة بتخطيط حركتهم وتوقيتها[١٢] ، وإذا صحت القصة (وأنا شخصيا غير مقتنع بها) فإنها تلقي ظلالا من الشك على العهد الناصري كله ، الذي كان هؤلاء يشغلون فيه مراكز القوة الحقيقية . وبالطبع لا يرى هيكل ، كعادته ، أن ما يقوله عن هؤلاء هو قبل كل شيء طعن في عبد الناصر ، الذي أسلم مقاليد بلده لأشخاص على هذا المستوى ، بل هو طعن في هيكل بدوره ، الذي رضي بأن يكون فيلسوفا لعهد يضم في داخله مثل هذه النوعيات .

أما تأييده للجناح المعتدل ، فكانت عواقبه وخيمة : إذ أن هذا الجناح هو الذي تولى ، في السبعينات ، القضاء على كل المقومات الرئيسية للناصرية ، كما حددها هيكل نفسه : أعني الحياد الإيجابي والاستقلال الوطني والتصدي للأمبريالية والصهيونية والنمو المستقل في ظل اقتصاد مخطط . أي أن نفس المجموعة التي اختار هيكل الوقوف في صفها ، كانت هي التي تولت تصفية الناصرية ، حسب مفهومه لها .

وحين عاد هيكل بذاكرته إلى الناصرية بعد عبد الناصر ، وجد التنظيمات الناصرية مفككة وعاجزة عن العمل السري أو العلني ، ومفتقرة إلى القيادات القادرة .[١٣] ولكن ناصريا

---

(١٢) « تحضير الأرواح » - ٤/٦/٧١ .

(١٣) انظر فصل « النزول إلى العمل السري » في « خريف الغضب » .

معروفا هو « فريد عبد الكريم » يؤكد تماسك الناصرية وثبات مبادئها ، وينفي الفكرة القائلة إنها تقوم على شخصية الزعيم ، مع اعترافه بالدور الأساسي الذي تلعبه هذه الشخصية . أما « عبد الهادي ناصف » ، وهو بدوره ناصري مخلص ، ومن النماذج النقية لهذا الاتجاه ، فقد كانت معاركه مع هيكل قديمة العهد ، منذ أن نشر هيكل مقال « تحية للرجال » الذي تضمّن مبالغة شديدة في تصوير صعوبة عبور قناة السويس ، ورد عليه « ناصف » بهجوم مضاد عنيف على اتجاهات هيكل التي رأى فيها ابتعادا عن الناصرية . وما زالت المعركة بين الاثنين قائمة .(١٤)

المهم في الأمر أن كثيرا من الناصريين المتمسكين بمبادئهم يتشككون في ناصرية هيكل ، لأسباب عدة :

فهو قد هاجم أهم رموز الناصرية بمجرد موت عبد الناصر ، بحيث يمكن أن ينظر إلى هجوم هيكل عليهم بوصفه هجوما على شيء في صميم الناصرية ذاتها . . وهو قد أبدى تأييدا لا شك فيه للتحولات الساداتية في السياسة الداخلية والخارجية ، خلال الفترة الحاسمة التي سبقت حرب ١٩٧٣ ، وهي التحولات التي سنرى فيما بعد أنها تنطوي - من وجهة نظر معينة - على بذرة الاستسلام لاسرائيل وفتح الأبواب لأمريكا وتخريب الاقتصاد

---

(١٤) انظر لعبد الهادي ناصف مقال : « من التفسير التآمري إلى المحاكمة على الفكر والنية » . جريدة الأهالي — ٢٢/ ١٢/ ٨٢

الوطني باسم الانفتاح . والأهم من ذلك أنه كان من الدعائم الكبرى لحكم السادات ، في الفترة الحرجة الأولى ، على الرغم من كل ما يعرفه عن الاختلاف الهائل بين السادات وعبد الناصر في الشخصية والفكر والاتجاه .

وهكذا يتبرأ كثير من الناصريين المتمسكين بعقيدتهم من هيكل ، بل ويناصبونه العداء . وعندما يستعرض المرء تطور مواقف هيكل ، منذ بدء ارتباطه بعبد الناصر حتى اعتقاله القصير الأمد في عهد السادات ، لا يملك الا أن يتساءل : هل كان هناك أي أساس حقيقي لتلك العلاقة التي ارتبط فيها اسم هيكل بالناصرية ، باستثناء ولائه لشخص عبد الناصر ـ ذلك الولاء الذي كان في الوقت ذاته المصدر الأول لشهرته ونفوذه ؟ سؤال أترك الاجابة عنه للناصريين أنفسهم . أما عن نفسي فإنني كلما صادفت حالة من تلك الحالات التي تسيء فيها كتابات هيكل إلى عبد الناصر أبلغ الإساءة ، دون قصد منه ، فإني لا أملك إلا أن أدعو لعبد الناصر بأن يرحمه الله من أصدقائه ، أما أعداؤه فقد كان هو ذاته كفيلا بهم ! .

الفصل الثامن

الجــــذور

الفصل الثامن

الجـــذور

ليغفر لي الاستاذ هيكل استعارتي عنوان هذه الحلقة من كتابه ، وربما كان عذري أنه هو بدوره قد استعارها من كتاب « اليكس هيلي » المشهور ، وكان موفقا في استعارتها ، لا لأن الحديث فيها كان يدور حول الأصول العائلية الأولى للسادات فحسب ، بل لأن هذه الأصول العائلية كانت ، في حالة السادات ، مثلما كانت في حالة بطل أليكس هيلي ، زنجية افريقية ، كما يحرص هيكل على أن يؤكد .

ولكن الحديث عن هذه الأصول العائلية ، اقتصادية كانت أم اجتماعية أم لونية ، ليس في رأيي هو « الجذور » الحقيقية لمأساة حكم السادات ، بل : انني أود هنا أن أتحدث عن « جذور » من نوع آخر ، أهم وأعمق بكثير ، كانت تكمن فيها بذرة التطورات التالية لسياسة السادات ، وأسلوب معالجته للقضايا القومية والوطنية والداخلية . هذه « الجذور » التي حددت ، منذ سنوات حكمه الأولى ، اتجاهاته التالية كلها ، هي التي تستحق بالفعل أن تدرس بعمق .

يمثل عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ تحولا حاسما في السياسة المصرية . كان عبدالناصر قد توفي في العام السابق وترك أمورا كثيرة معلّقة ،تحتمل السير في أكثر من اتجاه ، وعلى رأسها مبادرة روجرز ، التي كان قد أعلن قبوله لها قبل وفاته بشهور قلائل ، والاستعداد العسكري لمعركة العبور ، الذي كان قد بلغ في ذلك الحين درجة عالية من الاتقان . وعندما تولى السادات الحكم في أكتوبر ١٩٧٠ ، كان من الطبيعي أن تظل النغمة السائدة ، لفترة ما ، هي السير على طريق عبدالناصر . فلم يكن من الممكن أن يسير الاعلام والدعاية للرئيس الجديد في أي طريق مخالف ، لأن الاعلان عن استمرار النهج السابق هو أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف التي يختفي فيها رئيس قوي ذو شهرة واسعة وماض طويل ، ويحل محله خلف لا يزال ، الى حد بعيد ، مجهولا ، ولا يزال الناس يشعرون بأن كرسي الحكم كبير عليه .

كانت فكرة « السير على درب عبدالناصر » هي إذن الوحيدة الممكنة في تلك الفترة الأولى ، مهما كان الاتجاه الحقيقي الذي تسير فيه نوايا الرئيس الجديد وخططه . ولكن بعد حركة مايو ١٩٧١ ، التي تخلص فيها السادات بضربة واحدة من خصومه الذين شكلوا « جناحا آخر » مناوئا له ، طوال الشهور السبعة الأولى من حكمه ، بعد هذه الحركة أصبح للرئيس الجديد من حرية الحركة ما يسمح له بأن يبدأ تطبيق أفكاره الخاصة . ولكن

الحكمة كانت تقتضي أن يسير كل شيء بتدرج شديد ، بحيث يبدو في أول الأمر أن كل شيء سيظل على حاله ، ثم تطرح الأفكار الجديدة بصورة عابرة في البداية ، لمجرد التمهيد ، وبعد ذلك يبدأ الالحاح تدريجيا على هذه الأفكار الجديدة ، ومن الممكن أن تظل هذه المعايشة مع الأفكار القديمة وقتا ما ، ولكن هذه الأخيرة تذبل شيئا فشيئا ، الى أن يتبلور الاتجاه الجديد ، ويحتل الميدان وحده ، في نهاية الأمر . كل شيء إذن ينبغي أن يتم ببطء ، وحذر ، وتدرج ، ولكن الهدف واضح ، ومحدد مقدما ، وهو تحويل الاتجاه السياسي في مصر تحويلا جذريا . ولا بأس من الاستشهاد ، في عملية التحويل هذه ، بعبدالناصر على الدوام ، وخاصة إذا كان ذلك على صورة حديث خاص أو أقوال أدلى بها لهذا الشخص أو ذاك ، مادام الموتى لا يستطيعون التكذيب . فالاستعانة بعبدالناصر في عملية التحول ضد سياسة عبدالناصر ، هي أسلم الوسائل وأضمنها لتحقيق التغيير المطلوب بهدوء وسلاسة ، بحيث لا يشعر الناس به إلا بعد أن يكون قد تم .

في هذا التحول المخطط ، المرسوم بذكاء وبراعة ، كان من الطبيعي أن يكون للجهاز الاعلامي ، الذي يتربع على قمته هيكل ، دور أساسي : إذ أن الاعلام هو الذي يهيء عقول الناس للتغيير ، وهو الذي يمهد الطريق للسياسات المرسومة . ولو تتبع المرء خط السير الذي سلكته كتابات هيكل في هذه الفترة

لوجد المخطط المرسوم للتحول ينفذ فيها ببراعة هائلة ، وبتدرج بطيء ولكنه محدد الاتجاه ، ولتبين له أن عملية تهيئة الأذهان للتغيير قد ألقيت على عاتق هيكل ، الذي اضطلع بها بكفاءة عالية .

فما هو هذا التغيير الذي كان يراد في السياسة المصرية ؟ كانت هذه السياسة ، في السنوات الواقعة بين هزيمة ١٩٦٧ وموت عبدالناصر في سبتمبر ١٩٧٠ ، تتلخص في الاعتماد المتزايد على المساعدة السوفيتية ، اقتصاديا وعسكريا بوجه خاص ، ولم يكن هناك مفر ، في ظروف تلك الفترة ، من سلوك هذا السبيل . ذلك لأن أمريكا كانت ، قبل حرب ٦٧ وبعدها ، قد انحازت كلية لاسرائيل ، وكانت شحنات الأسلحة المرسلة اليها ، والتي زادتها قوة على قوتها الأصلية . تستهدف منذ ذلك الحين ان تصبح اسرائيل متفوقة عسكريا على الدول العربية مجتمعة . وكان الحل الوحيد هو الاعتماد على الطرف المضاد في الصراع العالمي من أجل الحصول على أسلحة تعوّض التفوق الاسرائيلي . وهكذا خلقت ظروف الفترة نفسها ، والهدف الذي حددته السياسة المصرية لنفسها فيها ، وهو إزالة آثار العدوان « خلقت وضعا يحتم مواجهة السلاح الأمريكي المتدفق على اسرائيل بسلاح سوفيتي ، دون أن يعني ذلك ، بأي حال ، انحياز مصر كليا أو جزئياً الى المعسكر الشيوعي . ولذا شاع عندئذ استخدام تعبير « الصداقة » في وصف العلاقات المصرية السوفيتية ، وتعبير « الاتحاد السوفيتي

الصديق » ، وكان ذلك يقتضي في المقابل زيادة حدة اللهجة المعادية لأمريكا . ومع ذلك فإن السياسة الرسمية لم تغلق أبواب الاتصالات مع أمريكا ، بوصفها قوة عظمى ينبغي أن يعمل لها حساب ، وإن كان الأمل في ممارستها ضغطا على اسرائيل من أجل الانسحاب كان في هذه الفترة شبه مفقود . وفي السنة الأخيرة من حياة عبد الناصر ازداد الحضور السوفيتي في مصر ، للرد على الغارات الاسرائيلية التي كانت قد توغلت الى أعماق البلاد . وعندما زار عبد الناصر موسكو سرا في يناير ١٩٧٠ ، كان هو نفسه الذي طلب حضور السوفيت للدفاع عن العمق المصري عن طريق الصواريخ المضادة للطائرات ، ووافق السوفيت بعد تردد ، وكان حضورهم هو الذي أوقف الغارات الاسرائيلية على الأهداف المدنية في مصر ، ولولا ذلك لشهدت المدن المصرية تخريبا واسع النطاق .

كانت هناك إذن حاجة حيوية الى وجود السوفيت والى الأسلحة السوفيتية ، يقابلها تصعيد متزايد للهجة العداء ضد الولايات المتحدة . وعندما اعتلى السادات الحكم ، كان من الطبيعي أن يواصل السير ، أول الأمر ، في هذا الطريق ، لا سيما وأن الوجود السوفيتي كان حتى ذلك الحين ضرورة حيوية لحماية الأهداف المدنية في مصر . ولكن السياسة المرسومة ، في المدى الطويل ، كانت هي التباعد التدريجي عن السوفيت ، وطرح فكرة إمكان التفاهم مع أمريكا ، ثم الدعوة الى الكف

عن معاداة أمريكا لأن من الممكن « تحييدها » في الصراع العربي الاسرائيلي . وبالتدريج تتهيأ العقول للنتيجة المطلوبة ، أعني إنهاء الوجود السوفيتي في مصر ، وهو المطلب الأساسي لأمريكا ، بحجة أنه يساعد على عملية « التحييد » هذه . وعندما يطمئن الأمريكيون الى أنهم قد أصبحوا وحدهم في الساحة ، وهم وحدهم حلفاء الطرفين المتنازعين ، العربي والاسرائيلي ، عندئذ يمكنهم أن يسيروا بهدوء وثقة في طريق السيطرة الكاملة على المنطقة ، وتحقيق الصلح بين الطرفين اللذين أصبحا داخلين في نطاق نفوذ امريكا بلا منافس .

هذا هو المخطط الشيطاني الذي رسم لمصر ، وللمنطقة العربية بأسرها ، بمجرد تولي السادات الحكم ، ولكن لنقل مرة أخرى إن التدرج الشديد كان جزءا أساسيا من نجاح الخطة . فليس من السهل أن تظل تقنع الناس ، سنوات طويلة ، بأن السوفيت أصدقاؤنا والأمريكان ألد أعدائنا ، ثم تنتقل بهم مرة واحدة الى القول بأن السوفيت هم الشياطين الحمر والأمريكان يمكن أن يصبحوا أصدقاء ، أو يمكن على الأقل « تحييدهم » ومن هنا كان من الضروري تنفيذ أهداف هذا المخطط الطويل الأمد خطوة خطوة ، فتوضع الأسس أولا ، ثم تأتي الخطوات التالية واحدة إثر الأخرى . ولما كانت مرحلة الانتقال الأولى هي الأصعب دائما ، فقد كانت تحتاج الى حذر وبراعة من نوع خاص .

وقبل أن نعرض المراحل التي مرت بها هذه الخطة ، دعونا نتأمل تقييم هيكل الأخير ، في « خريف الغضب » وفي غيره من كتاباته القريبة العهد ، لما حدث في هذه المرحلة .

إن هيكل يتحدث بطريقة يصفها بأنها « منصفة » عن دور السلاح السوفيتي في هذه المرحلة ، فيقول : « في الحقيقة ، وللانصاف ، فإن الاتحاد السوفيتي لم يقصرّ في معاملة مصر أثناء حرب أكتوبر أو بعدها مباشرة . ولا يمكن لأحد أن يتجاهل - بصرف النظر عما قيل ويقال - أن كل ما تحقق في حرب أكتوبر تحقق بسلاح سوفيتي . وبعد حرب أكتوبر مباشرة فإن الاتحاد السوفيتي قدم لمصر ٢٥٠ دبابة من طراز « تي يو ٦٢ » هدية . . . تعويضا لها عن خسائر الحرب ، كما أنه باع اليها فيما بعد ثلاثة أسراب من طائرات ميج ٢٣ المتطورة . ومع ذلك فقد كانت مكافأته هي استبعاده من مؤتمر جنيف في ديسمبر ١٩٧٣ . . . وفي أبريل ٧٤ كان السادات عنيفا في هجومه على الاتحاد السوفيتي بأنه قصرّ في التزامه بتعويض مصر عن كل خسائرها في القتال ، دون أن يشرح الأساس الذي جعله يتصور أن هناك التزاما سوفيتيا بتعويض مصر عن خسائرها » . ثم يجري هيكل مقارنة بين ما اشترته مصر من الاتحاد السوفيتي على مدى عشرين عاما (١٩٥٥/ ٧٥) وقيمته ٢٢٠٠ مليون روبل ، دفعت منها ٥٠٠ مليون روبل وبقي عليها ١٧٠٠ مليون ، ودخلت بها مصر خمسة حروب : السويس واليمن وحرب ٦٧ وحرب الاستنزاف

وحرب اكتوبر ، أما السلاح الأمريكي فكانت قيمته ٦٦٠٠ مليون دولار في ست سنوات (٧٥/ ٨١) لم تدخل بها أي حرب جديدة .

ولنستمع الى شهادة هيكل في حديث قريب العهد عن أضرار التسلح عن طريق أمريكا : « لقد كانوا (يقصد المملكة العربية السعودية) قلقين جدا مما يسمونه الخطر الشيوعي في المنطقة ، وكانوا يريدون إخراج السوفيت . . . وصحيح أنهم مولوا بعد ذلك شراء أسلحة غربية ، ولكني ممن يعتقدون أن الأسلحة الغربية لا تستطيع أن تدافع ضد اسرائيل . إنها تصلح لعمليات في الكونغو أو السودان أو الصومال ، أما اسرائيل فإنها ستتلقى أمام كل قطعة سلاح أمريكية يحصل عليها العرب ، لها ما يوازيها ، بل ما يتفوق عليها ويلاشيها »[1] .

هكذا يتحدث هيكل الآن ، وحديثه الحالي يعبر ، بلا شك ، عن اتجاه وطني واضح . ومن المهم جدا أن نتذكر تفاصيل كلماته هذه ، لأننا سنعود الآن إلى الوراء ونستعرض بعض الفصول القديمة ، والهامة ، لقصة علاقات مصر مع المعسكرين الكبيرين ، واتجاهات سياسة التسلح ، كما يرويها هيكل بنفسه في فترة التحول التي تحدثنا عنها منذ قليل . وكم أود أن يتنبه القارىء إلى آراء هيكل في هذه الفترة الحاسمة ، إذ

(١) حديث هيكل مع صلاح عيسى . جريدة الأهالي ٢٧/ ٤/ ١٩٨٣ .

أن أمورا عظيمة الأهمية كانت تتقرر عندئذ ، وبذور الشجرة التي « أثمرت » في زيارة ١٩٧٧ ومعاهدة ١٩٧٩ وتحالف حكومة مصر مع أمريكا من أجل خدمة الأهداف الأمريكية في مختلف مناطق العالم الثالث ـ هذه البذور كانت تغرس في تلك الفترة التي سنتحدث عنها ، ببطء ، وذكاء ، وتدرج ، ولكن مع إدراك واضح للهدف البعيد . وسوف أكتفي في معظم الأحيان باقتباسات مباشرة مما كان يكتبه هيكل في ذلك الحين ، مع تعليقات هنا وهناك للكشف عن تسلسل التفكير وتغير اتجاهه ، وفي ظني أن أقوال هيكل وحدها تغني عن كل تعليق ، وأن القراءة الذكية لها تكشف للقارىء عن كل شيء .

* * *

فلنبدأ بما كان يقوله هيكل في عام ١٩٧٠ . وقد اخترت هذا العام لأنه آخر الأعوام التي كان هيكل يكتب فيها خلال حكم عبد الناصر ، أي أنه كان هنا يعرض آراءه السياسية في الوقت الذي كانت فيه سياسة الدولة الرسمية تؤيد بقوة التسلح من الاتحاد السوفييتي ، وتعتبر الصداقة المصرية السوفييتية عاملا أساسيا في صمود مصر وتمكينها فيما بعد من إزالة آثار العدوان ، بينما تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها العدو الرئيسي الذي كان أكبر عوامل هزيمتنا في حرب ١٩٦٧ . فكيف كان هيكل يكتب في هذه الفترة ؟

- « ما زالت هناك بين قوى القومية العربية عناصر تنسى اسرائيل لكي تغرق نفسها في حرب مقدسة مع الشيوعية ، بينما الدول الشيوعية هي التي وضعت سلاحها في يد العرب ولولاه لما كان هناك أمامهم بديل عن الاستسلام . »[٢]

- « منذ يونيو ١٩٦٧ . . . فإن دور الاتحاد السوفييتي وأثر هذا الدور هو الذي ساعد الأمة العربية على تحقيق إرادتها بالصمود ضد الأمر الواقع الذي حاول تحالف الاستعمار والصهيونية فرضه عليها عسكريا » .

- « المناورة الأمريكية واضحة أمام أي عربي . فهي تريد عزل العرب عن الاتحاد السوفييتي لا لكي يخرج الصراع العربي الاسرائيلي من نطاق الحرب الباردة بين القوى الكبرى . . . ولكن لكي يبقى الطرف العربي تحت رحمة الأمر الواقع الذي يفرضه السلاح الأمريكي الذي تمسك به إسرائيل . »

- « الاتحاد السوفييتي له دور في الشرق الأوسط بحكم صداقته للعرب ، وهو دور أوجده العرب بأنفسهم قبل أن يوجده الاتحاد السوفييتي لنفسه ـ ردا على دور الولايات المتحدة وارتباطها بإسرائيل . »[٣]

---

(٢) مقال : « إلى متى الضباب ؟ » الأهرام ١٦/ ١/ ١٩٧٠ .

(٣) الاقتباسات الثلاثة السابقة من مقال « أزمة الشرق الأوسط » ـ ٢٠/ ٣/ ١٩٧٠ .

● « دور الاتحاد السوفييتي الكبير والخطير ليس فقط في إعادة تسليح الجيش المصري ولكن أيضا في ارسال المئات من خبرائه للمشاركة في إعداد الجيش المصري للقتال على مستوى الحرب الحديثة . وهو بهذا يسجل سابقة جديدة في التاريخ ، لأن الاتحاد السوفييتي بهذه السابقة كان أول بلد أوروبي يبعث بالعكسرين من أبنائه إلى أرض آسيوية وأفريقية ، لا لكي يسيطروا ويستعمروا . . . ولكن لكي يساعدوا هذه الأرض . . . على محاربة السيطرة والاستعمار . »

« لماذا يتخذ الاتحاد السوفييتي هذا الموقف المؤيد لنا ؟
الرد : أن الأمر بالنسبة للاتحاد السوفييتي مسألة مبدأ ، وهو عداء الاستعمار . »(٤)

أما عن أمريكا فيقول هيكل في هذه الفترة نفسها :

● « إن الولايات المتحدة صرحت لاسرائيل باستخدام طائرات الفانتوم في غارات بالعمق ضد الأراضي المصرية ، ولم تكن اسرائيل تستطيع أن تفعل ذلك إلا بتصريح أمريكي واضح . »(٥)

● « إن العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة وصلت الآن إلى

(٤) « ما هو الاختلاف والخلاف ؟ » ١٤/ ٨/ ١٩٧٠ .

(٥) « المائة يوم القادمة » - ١٣/ ٢/ ١٩٧٠ . ويلاحظ أن « المانشيت » الرئيسي لهذا العدد كان حول غارة إسرائيل على مصنع أبوزعبل ، حيث قتل وجرح عدد كبير من العمال ، وكان العنوان « الجريمة الإسرائيلية الأمريكية » .

الحد الذي لم تعد فيه السياسة الأمريكية قادرة على أن تظهر أو تمارس أي قدر من الاستغلال عن الارادة الإسرائيلية . »[٦]

● ويشير إلى وقوف أمريكا فيصفه بأنه « التعهد باستمرار تفوق اسرائيل في قوة النيران على كل ما لدى العرب مجتمعين من قوة النيران . »[٧]

● « إن السياسة الأمريكية الممعنة في عدائها للعرب ، والممعنة فى تحيزها لاسرائيل ، استمرت على مدى عهدين (جونسون ونيكسون) من سنة ١٩٦٧ حتى الآن . . . ومعنى ذلك أن هناك تخطيطا أعلى من أن تغيره اختلافات العهود أو الأحزاب أو الرئاسات . » ثم يقتبس هيكل في المقال نفسه أقوالا ويشير إلى أحداث تحيزت فيها أمريكا ضد العرب بوضوح ، ويعلق على ذلك قائلا إن هذه الوقائع « تستطيع أن ترد على دعوى السياسة الأمريكية المتوازنة . »[٨]

● ويحدد هيكل أهداف أمريكا في المنطقة فيقول في نص هام : « ماذا تريد الولايات المتحدة من الشرق الأوسط ؟ . . . »

« أولا : إخراج الاتحاد السوفييتي من المنطقة ، مع تجنب المواجهة المباشرة معه في نفس الوقت .

---

(٦) « السياسة الأمريكية والإرادة الاسرائيلية » - ٢٠/ ٢/ ١٩٧٠ .
(٧) « المسدس . . وفي يد من هو ؟ » - ٦/ ٣/ ١٩٧٠ .
(٨)« رسائل على الطبول الأفريقية » - ١٣/ ٣/ ١٩٧٠ .

« ثانيا : الاحتفاظ بإسرائيل قوية في الشرق الأوسط ، قادرة على القيام بدور حارس المصالح الأمريكية في المنطقة .

« ثالثا : إبقاء العالم العربي في حالة من الضعف يسهل معها على الولايات المتحدة تأمين مصالحها .

« رابعا : تحديد دور مصر في المنطقة ، أو بعبارة أوضح حصار دور مصر . . .

« هذا هو مجمل مطالب الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط . . . في عالم السبعينات . »

ثم يذكّر هيكل القراء بعبارة هامة قالها كيسنجر : « إننا يجب أن نطرد expel الاتحاد السوفييتي من منطقة الشرق الأوسط بكل الطرق والوسائل » ويعلّق عليها بقوله : « ومن المهم لنا جدا أن نتذكر ذلك ، وأن لا يغيب عنا معناه . »(٩)

هذا ما كان يقوله عن السوفييت وأمريكا في الأشهر الأخيرة من حياة عبد الناصر ، ومن المهم أن نؤكد المعاني الرئيسية التي كان يدعو إليها عندئذ : لا غناء لنا عن الاتحاد السوفييتي في التسلح ـ صداقة السوفييت مسألة مبدأ ، لا مسألة مصالح ـ العرب ، ومصر بالذات ، هم الذين طلبوا التواجد السوفييتي ، الذي لم يفدهم في التسليح فقط ، بل في التنمية أيضا ـ أمريكا

---

(٩) « أمريكا . . نظرتها إلى الأزمة وأسلوبها » ـ ١١/ ٩/ ١٩٧٠ .

تحرص على بقاء إسرائيل أقوى من العرب أجمعين ـ الإرادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الإرادة الاسرائيلية ـ عداء أمريكا للعرب هدف دائم ، يتجاوز العهود والرئاسات ـ سياسة التوازن بين العرب وإسرائيل هي ، في نظر أمريكا ، خرافة ـ أول أهداف أمريكا هو إخراج السوفييت من المنطقة ، ثم تقوية إسرائيل وإضعاف العرب ، ثم حصار مصر وعزلها عن العرب ، وهذه الأهداف ليست مرحلية بل هي أهداف السبعينات كلها .

* * *

فلنتأمل بعد ذلك ما قاله هيكل في السنتين الأوليين من عهد السادات . ولنتذكر ما قلناه من قبل ، من أن الخطة ـ خطة التحول الحاسم ـ ينبغي أن تكون شديدة التدرج : فهناك شعب مهيأ ذهنيا لأفكار كتلك التي لخصناها من قبل ، وهناك تسلح لا يمكن الاستغناء عنه بين يوم وليلة ، وهناك اقتصاد كان لا يزال مرتبطة بالمساعدات السوفييتية إلى حد بعيد . لذلك كان من الطبيعي ألا تنكشف الأوراق مرة واحدة . فبعد حركة التصحيح ، في مايو ١٩٧١ ، مباشرة ، كان المطلوب هو تفنيد حجة الجناح الذي كان معاديا للسادات ، والذي عبر عنه الفريق فوزي بقوله إن السادات «يبيع البلد للأمريكان» ، ولذلك كان من الضروري الاستمرار في الضرب على النغمة السابقة ، النغمة الناصرية ، بعض الوقت ، لاسيما وأن السوفييت

بدأوا ينزعجون . وهكذا كتب هيكل يقول : « أقول بأمانة وصراحة أنه لولا الاتحاد السوفييتي لما كان أمامنا خيار غير القبول بشروط المنتصرين كما حدث سنة ١٩٤٨ . وقيمة الصداقة العربية السوفييتية أنها ليست صداقة ظروف ، أي أنها ليست صداقة تكتيكية ، وإنما هي - كما كان يقول جمال عبد الناصر - صداقة نضال ضمن الجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، ونضال من أجل الحرية والتقدم . . وإنصافا للاتحاد السوفييتي فإن تعامله مع جمال عبد الناصر ومع أنور السادات بعده كان تعامل الشرفاء . ومن الحق أن يقال أنه لا يمكن أن يكون هناك مصري يحترم مصريته أو عربي يحترم عروبته إلا ووجد نفسه صديقا للاتحاد السوفييتي . »[١٠]

الرسالة التي يريد هيكل أن ينقلها إلى السوفييت هنا هي : اطمئنوا . . . لقد قضينا على أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أنصاركم ، ولكننا ما زلنا أصدقاء بقوة .

ولكن مخاوف السوفييت أخذت تزداد بعد الدور الأساسي الذي لعبته القوات المصرية في إحباط انقلاب هاشم العطا (اليساري) في السودان ، ولذلك يحاول هيكل طمأنة مخاوفهم (لأن الوقت لا يزال مبكرا للتخلص منهم) ، فيبدأ مقاله بقوله : « لا يمكن لأحد أن يتهمني بممالأة الاتحاد السوفييتي ، بل

---

(١٠) « ماذا أقول » - ١٩٧١/٥/٢١ .

إن عناصر من داخل الاتحاد السوفييتي أو موالية له بالفعل أو بالادعاء رمتني مرات بممالأة أمريكا لأنني طالبت بعدم التصادم والتناطح معها بالقوة : « كان همس عناصر السلطة (يقصد الجناح الناصري الآخر) ولأهداف صراعهم من أجلها أن أنور السادات قد عقد صفقة لحل الأزمة من وراء ظهر الاتحاد السوفييتي . . . حتى توحي للاتحاد السوفييتي بأن أنور السادات يستعمله كورقة في لعبة وليس صديقا في نضال . »(١١)

ورغم محاولة الترضية الواضحة ، فإن هذا الاقتباس يهمنا في أمرين :

الأول هو وجود تلميح إلى موقف جديد من أمريكا تعرض هيكل بسببه للوم من بعض الجهات ، وإن كان هيكل لا يزال يؤكد ، حتى ذلك الحين ، أن كل شيء على ما هو عليه .

والثاني هو وصف هيكل للسادات في عام ١٩٧١ بأنه صديق للسوفييت في النضال ـ نفس السادات الذي عرض علينا هيكل في « خريف الغضب » تفاصيل عن ماضيه مع أجهزة المخابرات المختلفة المتصلة بالأمريكيين اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

ثم تزداد التلميحات وضوحا بالتدريج ، مع الاحتفاظ

---

(١١) « مرة أخرى : العلاقات العربية السوفييتية » ـ ٢٧/٨/ ١٩٧١ .

بالموقف القديم (مؤقتا) . فهو في هذه المرحلة لا يزال يؤكد أن « الهدف الأكبر الذي تسعى إليه إسرائيل والولايات المتحدة هو إخراج العامل السوفييتي كله تأثيرا وتواجدا في أزمة الشرق الأوسط ، لأن هذا العامل هو أهم القوى الضاغطة ، وإذا لم ندرك ذلك ، وإذا لم نعمل على مواجهته ـ اذن فنحن نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة . »[١٢] ومع ذلك فإن في المقال نفسه إشارات واضحة إلى أن من الممكن أن يتوقف إمداد أمريكا لاسرائيل بالسلاح ، لو أن العرب لعبوا لعبة التوازنات والحسابات ، والعقبة الرئيسية في وجه هذه الخطوة ، من وجهة نظر أمريكا ، هي التواجد السوفييتي . وهكذا ننتقل الى موقف جديد ، فبعد أن كان الموقف السابق هو : لا أمل من أمريكا ، أصبح الآن : هناك أمل ، بشرط أن نعرف قواعد اللعبة .

وفي الوقت ذاته كانت فكرة « تحييد امريكا » قد بدأت تظهر في كتابات هيكل منذ اوائل عام ١٩٧١ ، أي بعد حوالي أربعة أشهر من تولي السادات السلطة . فهو يتحدث ـ في فبراير من هذا العام ـ عن ضرورة الاقتداء باسرائيل في تحقيق أهدافها خطوة خطوة ، بحيث يكون هدفنا الحالي هو ازالة آثار العدوان ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « ومن المحتمل أيضا ، وبجهد متواصل وعاقل ، أن الولايات المتحدة يمكن تحييدها بشكل ما ولو جزئيا أثناء تحقيقه ، وان كان ذلك متداخلا في

(١٢) « شهور مضت ، وشهور قادمة » ـ ٢٥/٦/ ١٩٧١ .

اوضاع وظروف قد تقتضي شرحا أوسع »[١٣] وفي المقـال التـالي يزيد فكرته ايضاحا فيقول : « إذا أردنا ان نصل بنتيجة ما حدث سنة ١٩٦٧ الى نجاح يماثل نجاحنا سنة ١٩٥٦ فإننـا يجـب ان نحصل على عنصرين : أولهما تأييد احدى القوتين العظميين ، وذلك متاح لنا بتعاطف وصداقة وتأييد الاتحاد السوفيتي . والثاني تحييد القوة العظمى الأخرى ، وهي الولايات المتحدة ، او على الاقل منع تدخلها ضد مصلحتنا في الازمة وغير ذلك مستحيل . »[١٤] ثم يأتي بعد ذلك كلام أخطر : « من هنا فلقد كنت ، ومازلت ، أختلف مع النغمة التي تقول إن الذي نواجهه امامنا في ميدان القتال هو الولايات المتحدة وليس إسرائيل (لاحظ أنه كان يقول بعكس ذلك تماما منذ عام) .والصحيح أن بيننا وبين الولايات المتحدة مواجهة سياسية ، أو صراعا سياسيا ، وهدف هذا الصراع هو الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة كحد أقصى ، أو تحييد الموقف الامريكي تجاه اسرائيل كحد أدنى ، وذلك عن طريق توجيه ضغط دولي وعربي ومصري ضد الولايات المتحدة . . . هذا الضغط . . . يقنع الولايات المتحدة . . بأنها تواجه تقلصا مخيفا في هيبتها كقوة عظمى ، والهيبة على رءوس الدول العظمى كالتيجان القديمة على رءوس القياصرة »[١٥] . وبعد قليل يحدد الهدف من صراعنا مع

١٣ــ « عنالاقتناع بإمكانية تحقيق هدف » ـ ٢٦/٢/ ١٩٧١ .

١٤ ــ « التضاريس في الطبيعة وفي السياسة » ـ ٥/٣/ ١٩٧١ .

١٥ ــ المقال السابق نفسه .

الولايات المتحدة ، بانه « ليس هزيمتها في ميدان القتال ، وإنما اخراجها ، وبكل وسيلة ، من ميدان القتال » . « وأقول إنني استطيع ان اجد طريقا يقدر به الشعب المصري ان يحارب اسرائيل ويهزمها . . ولكن ذلك يتطلب ان تكون الولايات المتحدة بعيدة عن ميدان القتال » .

إن تصعيد لهجة « تحييد امريكا » كان يزداد طوال عام ١٩٧١ ، وكانت المغالطة التي ارتكبها هيكل مزدوجة : فبعد ان كان ايام عبد الناصر يربط بين امريكا واسرائيل بحيث يستحيل فصلهما ، وبعد أن كان يؤكد أن هدف امريكا الدائم والاستراتيجي هو اضعاف العرب من اجل هدمهم ، اصبح الان يقدم الى القارىء ، في جرعات خفيفة أول الأمر ، ثم تزداد كميتها بالتدريج ـ فكرة إمكان تحييد امريكا وإيقاف فاعليتها في مؤازرة اسرائيل ، بل ويرى ان الحرب بدون ذلك مستحيلة . ولكن اذا ادركنا مدى استراتيجية التحالف بين امريكا واسرائيل ، واذا ادركنا ان امريكا لابد ان تعمل ما من شأنه منع العرب ، بشتى الطرق ، من أن يكتسبوا القدرة اللازمة لممارسة الضغط عليها ، لوجدنا الى اي حد تؤدي « وصفة » هيكل الجديدة « لهزيمة » اسرائيل الى طريق مسدود .

والى هذه الفترة ينتمي مقال « تحية للرجال » المشهور (١٢ مارس ١٩٧١) الذي بالغ فيه هيكل ، وكأنه جنرال خبير في ميدان القتال ، في وصف الصعوبات المميتة التي سيصادفها

الجيش المصري لو حاول عبور قناة السويس التي هي اخطر مانع مائي في العالم ، وتحدث عن القوة الهائلة للجيش والطيران الاسرائيليين ، وكيف ان العبور يجعل جيشنا « يواجه ما لم يواجهه جيش من قبل » . ولم تكن عملية التخويف هذه الا جزءا من السياسة الجديدة ، فلم يكن من المستغرب اذن ان يثور عليه انصار السياسة الناصرية السابقة ثورة عارمة .

ولنختم هذا العرض لفكرة التحييد بعبارات تظهر فيها اتجاهات هيكل الجديدة ، التي استدارت بزاوية ١٨٠ درجة عن اتجاهاته منذ عام واحد ، بوضوح كامل : « اذا كانت اسرائيل قد انتصرت على العرب في معارك بفعل التأييد الأمريكي فإن هذا التأييد الأمريكي ليس دائما ، وإنما الدائم هو المصالح الأمريكية فقط . . ومن هنا فإن التأييد الأمريكي ليس سلاحا أبديا في يد اسرائيل ، وهذه عبرة الأيام ». [١٥] .

وفي العام التالي حدثت الخطوة الحاسمة ، التي ظهرت فيها معالم السياسة الجديدة بلا مواربة ، والتي تُعد الكتابات السابقة تمهيدا متدرجا لها ، وأعني بها طرد الخبراء السوفييت من مصر في يوليو ١٩٧٢ . هنا نود ان نذكر القارىء بالاقتباسات التي تعمدنا أن نكررها من قبل ، والتي تبين ان هيكل كان واعيا تماما بأن طرد الخبراء السوفيت هو هدف السياسة الأمريكية في

---

١٥ ـــ « العام الحاسم ومركز السادات » ـ ٧/ ١١/ ١٩٧١ .

المنطقة ، وبأننا إذا لم نواجه ذلك فكأننا « نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضه » . ولكنه ، في ظل السياسة الجديدة ، لا يجد أية غضاضة في أن يحمل طبق الفضة بيديه ، ويبتلع كلماته ومواقفه السابقة بسهولة تامة ، ويساعد « العدو » على تحقيق مطلبه بكل ما يملك من قدرة وموهبة ، فحين خرج السوفيت بالفعل ، لم يقل لنا هيكل كلمة واحدة عن تأثير ذلك على الولايات المتحدة ايجابيا ، ولم تصدر عنه كلمة واحدة يقول فيها إننا كنا نستطيع استثمار هذا الطرد لصالحنا ، كما أصبح يقول في ايامنا هذه ، ولم يوجه كلمة نقد واحدة ، بل إنه ، على العكس من ذلك ، اخترع قصة اعتقاد الاتحاد السوفيتي بوجود فراغ عقائدي في المنطقة ، واستعرض ، بلا مناسبة ، ولمجرد التحرش بالخصوم الجدد وتبرير سياسة السادات الجديدة ، تاريخ الخلافات العقائدية مع السوفيت منذ الستينات ، وكلها أمور حشرت حشرا بصورة ملفقة ، إذ أن هذه الخلافات لم تمنعه ، ايام عبد الناصر ، من امتداح السوفيت المبالغ فيه . والأخطر من ذلك أن هيكل يذيع سرا (يؤكد أنه لم يكن سرا ، وان كان معظم الناس لم يعرفوه الا عن طريقه) هو ان خمس طائرات سوفيتية كانت قد سقطت في يوم واحد ، هو ١٨ ابريل ١٩٧٠[١٦] . وكان الهدف من هذا الاعلان ، الذي بلغ قمة التنكر لتلك « الأفضال » التي كان يسبح بحمدها من قبل ، هو التشكيك في قدرة الطيارين

---

١٦ ــ « الحوار المطلوب والضروري » ـ ٧٢/٨/١١ .

السوفيت ، ولا مانع لديه من تحطيم معنويات جيشه وأبناء وطنه عن طريق اعــلان تفــوق إسرائيل الى هذا الحــد حتــى على السوفييت .

ويكمل هيكل حملته على السوفيت ، الذين كان يتغزل فيهم قبـل اقـل من عامـين ، والـذين يدعونا الى الندم على فقدانـنـا لصداقتهم في أيامنا هذه ، فينشر وثيقة « سرية » (لا أدري من أين حصل عليها ، وأتمنى أن يثبت لنا في هذه الأيام إن كانـت صحيحة أم ملفقة) هي تقـرير لجنـة داخـل الحـزب الشيوعـي السوفيتي عن برنامج الحزب الشيوعي السـوري ، وفي التقـرير تشكيك في القومية العـربية وإمـكانية الحـل العسـكري أو قيام الدولة الفلسطينية . ولا ينس هيكل ان يقلل من قيمة السلاح السوفيتي ، مؤكدا انه « كان متأخرا عن الولايات المتحدة في هذا المضمار سبع سنوات »[١٧] .

ومن الملفت للنظر أن هيكل قد استخدم ، في هذه الحملة على السوفيت ، نغمة اصبح السادات فيما بعد يستخدمهـا على أوسع نطاق لإثارة مشاعر الشعـب المصري ضد بقية الشعـوب العربية عندما حدثت المقاطعة بعد زيارة القدس ، واعنـي بهـا نغمة « مصر اولا » . فخروج السوفيت « حـرك نبض الـوطنية المصرية . . ووضعهـا في موضـــع الاعتماد على النفس »[١٨] . .

١٧ ــ « في موسكو ايضا : وقفة موضوعية مع صديق » ـ ٧٢/٨/١٨ .
١٨ ــ انظر الهامش رقم (١٦)

نفس خروج السوفيت الذي كان منذ قليل يوصف بأنه مطلب العدو ، وهدف السياسة الأمريكية الأول . . وهو في موضع اخر يتحدث عن خطأ السوفيت لأنهم « لم يدركوا قيمة مصر الحضارية ، ولم يدركوا ان مصر هي مصر ، وسوف تبقى دائما مصر »[19] .

كان التحول قد اكتمل وكانت الحلقة قد اغلقت باحكام ، وتحول الصديق الذي وصف قبل ذلك بأنه تعامل مع عبد الناصر والسادات معاملة الشرفاء ، والذي « لا يوجد مصري يحترم مصريته ، ولا عربي يحترم عروبته إلا وكان صديقا له » ـ تحول الى عدو لحضارة مصر ، واصبح خروجه علامة على الوطنية . .

وعندما وصل هيكل في كتابته الى هذه المرحلة ، استأذن القارىءليأخذ[20] أجازة لمدة شهر من الكتابة . .

كان مدركا انه اكمل مهمته ، وذهب ليستريح . .

* * *

والآن ، دعونا نلقي نظرة هادئة على تلك الكلمة ذات المظهر البريء ، التي كانت الخطة المتدرجة ، الشديدة الحذر والذكاء ، تستهدف اقناع الأذهان بها ، واعني بها كلمة « تحييد امريكا » . هذه الكلمة تلخص هدف السياسة الجديدة كلها : فبينما كان هيكل يؤكد ، في ظل سياسة عبد الناصر ، أن أمريكا لا

---

١٩ ــ انظر الهامش رقم (١٧) .

٢٠ ــ في مقال ١٨ اغسطس ١٩٧٢ .

تقل عداء لنا عن اسرائيل ، وأن مصالحهما مرتبطة ارتباطا عضويا يستحيل تفكيكه ، وأن الأمور وصلت الى حد أن الارادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الارادة الاسرائيلية ، وان دفاع امريكا عن اسرائيل وسعيها الى اضعاف الدول العربية إنما هو سياسة دائمة وليس على الاطلاق وضعا مؤقتا ـ بينما كان هيكل يؤكد ذلك كله ، أصبح في عام ١٩٧٢ يركز جهوده على طرح هذا المفهوم الجديد ، الذى يتناقض كلية مع المفاهيم السابقة ، وأعني به مفهوم « التحييد » ، ويعني به كف يد امريكا عن التدخل لصالح إسرائيل ضد العرب . فلنحلل اذن هذا المفهوم ، ونستخلص نتائجه .

ان لعملية التحييد هذه وسيلتين :

الأولى هي تنمية القوة الذاتية العربية ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، الى الحد الذي تضطر فيه امريكا الى إن تعمل حسابا لقوتنا ، وخاصة حين تصل هذه القوة الى حد تهديد المصالح الأمريكية في المنطقة . فكيف تتحقق لنا مثل هذه القوة ؟ من الواضح انها ، لكي تصل الى الحد الذي تشكل فيه تهديدا حقيقيا ، وليس مجرد تهديد مظهري أو مؤقت ، لمصالح امريكا ، تحتاج الى تغيير شامل في نمط الحياة العالم العربي وفي اساليب حكمه . ولو وصلنا بالفعل الى مثل هذا التغيير ، فلن نكون عندئذ بحاجة الى تحييد امريكا ، لاننا عندئذ نستطيع ان ننتزع حقوقنا بأيدينا ، شاءت امريكا ام ابت . وابلغ دليل على ضخامة

حجم التغيير ، السياسي والاقتصادي والعسكري ، المطلوب تحقيقه في مجتمعاتنا من اجل الوصول الى تحييد امريكا ، ان هذا التحييد لم يتحقق حتى عندما وصل التضامن العربي ، عسكريا واقتصاديا ، الى مستوى عال لم يبلغه في اي وقت من قبل ، في حرب اكتوبر ١٩٧٣ . فقد زادت امريكا من مساعداتها لاسرائيل أثناء الحرب ، وقدمت اليها اضخم جسر جوي من معدات القتال عرفه التاريخ ، مما اتاح لها قلب ميزان الحرب جزئيا لصالحها . وان طريق القوة الذاتية العربية المطلوب من اجل التحييد طويل جدا ، ولو بلغناه يوما ما لما أصبح للتحييد عندئذ أي داع .

أما الطريق الآخر ، فهو الطريق العكسي ، أعني طريق الأذعان لمطالب أمريكا وتقديم الخدمات والتسهيلات لها ، وتحقيق مصالحها في المنطقة الى الحد الذي يأمل اصحاب هذا الطريق ان يؤدي الى تخفيف انحيازها لاسرائيل ، مادام هناك أصدقاء جدد يؤدون وظيفة اسرائيل التقليدية ، وهي حماية المصالح الامريكية . هذا الطريق إذن لا يكمن في تهديد مصالح امريكا ، بل في التنافس مع اسرائيل على حماية هذه المصالح . ونظرا الى أن الطريق السابق طويل وشاق ، ويفترض شروطا يحتاج تحققها الى ثورة كاملة لو حدثت لما عدنا نحتاج الى هذا التحييد ، فإن نوع التحييد الذي يمكن تنفيذه عمليا ، في ظروف العالم العربي الراهنة ، هو النوع الثاني ، أعني التحييد

الاستسلامي . ولهذا التحييد دائما ثمن فادح . فما الذي يدفع امـريكا الى الامتنـاع عن مسانـدة اسرائيل او التخفيف من انحيازهـا لهـا ؟ ان اسرائيل حليف قوي ، يحقـق لهـا مصالـح ضخمة : ردع قوى التحرر في العالم العربـي ، ضمان تدفـق النفط للغرب ، صدّ « الخطر الشيوعي » . وعلى ذلك فالمطلوب منا ان نقوم نحن بأداء هذه الخدمات كلها لأمريكا ، حتى تدرك أن مصالحها لا تتحقق على يد اسرائيل وحدها ، لا سيما وان لدينا مزايا خاصة ، هي اتساع الرقعة جغرافيا ، واستراتيجية الموقع ، والموارد البشرية والمادية الكبـيرة .

هذه هي النظرية التي تبنتها المدرسة الساداتية ، عمليا ، وكانت اولى خطواتها هي طرد الخبراء السوفيت إرضاء لأمريكا . وتلتها خطوات اخرى : منح القواعد او التسهيلات العسكرية ، المشاركة في بعض الحروب الصغيرة لصالح الغرب (زائير والصومال وتشاد وافغانستان وغيرها) ، تغيير اتجاه الاقتصاد بحيث يصبح رهينة للبنوك الأمريكية والدولية ، وتأكيد دور القطاع الخاص مع الإقلال من أهمية القطاع العام ، الخ . .

وهكذا يؤدي الجري وراء سراب « التحييد » الى ان يصبح العـرب أشبـه « بالزوجـة الثـانية » للـزوج الغنـي والقــوي : أمريكا . وككل زوجة ثانية ، يتعين على العـرب ان يتفننـوا في إرضاء أمريكا وإغرائها بالتنـازلات حتـى تنصرف عن الزوجـة

الأولى (اسرائيل) . ومع كل ذلك فإن اسرائيل القوية ، التي يتسم نظامها بالثبات ، ولا يتصف بتقلبات الأنظمة العربية ومزاجيتها ، والتي تشارك امريكا « ديمقراطيتها » واعتمادها على مؤسسات ثابتة ، لا على اهواء شخصية - إسرائيل هذه هي التي تكسب « الزوج » في النهاية ، بعد أن تكون الزوجة الثانية قد أعطت أعز ما تملك !

هذه هي النتيجة التي توصل اليها سياسة « التحييد » عمليا . وقد اختبرت هذه السياسة ، كما قلت ، في حرب اكتوبر ، فكانت النتيجة مزيدا من التدخل الأمريكي لصالح اسرائيل ، مما جعل السادات نفسه يقول : أوقفت القتال لأنني لا أستطيع أن أحارب أمريكا ! ولكن المأساة هي أن نفس اللحظة التي بلغ فيها تدخل امريكا لصالح اسرائيل ذروته ، كانت هي اللحظة التي بلغ فيها هيام أصحاب سياسة « التحييد » بأمريكا أعلى قممه . ومنذ أن بذلت أمريكا أكبر جهد تملكه من اجل تزويد اسرائيل بأضخم كمية من الأسلحة لكي تقتل بها أبناءنا وتحتل اراضينا ، أصبحت هي الصديق ، ثم الحليف والوليف !

في كلتا الحالتين إذن ، وسواء وصلنا الى التحييد عن طريق القوة الذاتية ام عن طريق الاستسلام ، تنتهي سياسة التحييد الى نتائج مناقضة لذاتها ، وتلغي نفسها بنفسها .

* * *

ولنتأمل بعد ذلك نتائج هذه السياسة الجديدة التي نفذت بتخطيط بارع ، بالنسبة الى حرب اكتوبر .

ان هناك جدلا ضخما ، يثيره هيكل في هذه الايام ، حول الارادة السياسية لحرب اكتوبر ،ويرى فيه ان هذه الحرب ، التي حققنا فيها انجازا عسكريا جيدا بجميع المقاييس ، لم تكن نتائجها السياسية على مستوى الأداء العسكري فيها على الاطلاق ، والنقطة الأساسية التي يثيرها هيكل في هذه الأيام هي انه كان من الممكن تطوير الحرب حتى الممرات على الاقل منذ الأيام الأولى ، مما يعطينا مركزا تفاوضيا أقوى بكثير . وفضلا عن ذلك فقد كشفنا أوراقنا للعدو في مراسلات سرية دارت منذ اليوم الثاني للحرب ، اعترفنا فيها بأن هدفنا من الحرب محدود ، وبأننا لن نعمق الصراع او نوسع جبهاته ، مما أتاح لأمريكا ، ولهنري كيسنجر بوجه خاص ، فرصة معرفة خططنا النهائية مقدما واستغلالها لصالح اسرائيل[٢١] .

وفي تصوري ان الجدل حول هذا الموضوع كله ، بالصورة التي طرحها هيكل ، جدل عقيم . ذلك لأن هيكل يفترض ان كيسنجر لم يعرف النوايا المصرية من الحرب ، الا عن طريق تلك المراسلات السرية ، ومن هنا فإنه يوجه اللوم الى من كتبها والى من اعطى الأمر بكتابتها ، على حين ان كاتبها يدافع عن نفسه

٢١ ــ انظر احاديث هيكل في « الاهالي » خلال شهري مايو ويونيو ١٩٨٣ .

بحرارة ضد اتهامات هيكل بشأن هذه المراسلات ، وحقيقة الأمر ان امريكا تعرف نوايا الحرب المصرية منذ أمد بعيد . فهناك عوامل كثيرة كانت كلها كافية لمعرفة هذه النوايا : منها مثلا الصراع بين هيكل والجناح الآخر من الناصريين حول طبيعة الحرب المنتظمة ، ومنها الاتجاه الكامل للدبلوماسية المصرية في عهد السادات خلال السنوات السابقة للحرب ، ومنها طرد الخبراء السوفيت والسعي الى مزيد من التقارب والتفاهم مع أمريكا . كل هذه التطورات لم تكن تؤدي بأي حال الى قيام حرب تحرير شاملة .

ولكن ، لندع الاستنتاجات جانبا ، ولنستمع الى الأقوال الصريحة والمباشرة . فطوال شهور فبراير ومارس وابريل ١٩٧٢ ، كانت كتابات هيكل تركز على « الحل السياسي الذي تسانده قوة عسكرية ـ لا الحل الدبلوماسي فقط ، ولا الحل العسكري المطلق » . « لا بد ان نفهم ان الولايات المتحدة لن تتحرك ـ اذا تحركت ـ الا تحت ضغط ، والا فماذا يدفعها الى الحركة ؟ القوة العسكرية ، نعم ، ولكن . . وفقا لموازين العصر وفي اطار سياسي شامل »[٢٢]

وهكذا كان تصور هيكل للحرب هو أن هدفها التحريك ، وتحريك من ؟ الولايات المتحدة بالذات . ولماذا

---

٢٢ ـ « سيادة العقل » ـ ١٩٧٢/٣/١٧ .

نبحث عن تحريك الولايات المتحدة ، وليس اية دولة اخرى ، كهدف للحرب ؟ ألا يفترض هذا ان امريكا تملك كل ، أو معظم ، أوراق اللعبة ؟ هكذا يدل كلام هيكل بوضوح على أنه يشارك في الموقف الرئيسي لسياسة السادات في ادارة الصراع العربي الاسرائيلي .

ولنستمع الى كلمات أصرح : « الحرب المسموح بها الآن هي استعمال القوة المسلحة لهدف تتوفر له الشرعية الدولية . . ويتوفر للطرف الذي سيحمل السلاح لتحقيق هذا الهدف تأييد احدى القوتين الأعظم على الاقل ، ثم يتوفر لهذا الطرف بقوته الذاتية وبما يتلقاه من أصدقائه طاقة لاشك فيها لتحقيق هذا الهدف في اطار محدد او محدود . ثم يكون القصد من تحقيقه هو التأثير في الوضع السياسي . معنى ذلك انها حرب محدودة . . محدودة الهدف »[٢٣] . هل هناك ما هو أوضح من هذه العبارات في الدلالة على ان هدف الحرب المحدودة ، لا الحرب الشاملة ، كان مرسوما مقدما ، وان هيكل كان مشاركا في التخطيط لهذا الهدف والترويج له ؟

ومع ذلك ، فهناك ما هو اصرح حتى من هذا الكلام : « ليكن أن مصر تشعر أن طاقتها تحتمل أن تحرر بالقوة المسلحة ولو مائة كليو متر مربع فقط من أراضيها . . وإذا كانت مصر

---

٢٣ ـ « نوع الحرب الممكنة ، والضرورية ـ ١٩٧٢/٣/٢٤

دقيقـة في حساباتهـا ، فإنهـا سوف تنجـح في تحقيق ما تريد ، وسوف تحرر بالفعل هذه المائة كيلو متـر مربـع من اراضيهـا ، وسوف تحتفظ بها في وجه أية هجمات مضادة من العدو . . وهذا يغير صورة الأزمة كلها ، ويفتح الباب لتطورات مباشرة اخرى في مجرى الصراع » . [٢٤] .

تأمل معي ، أيها القارىء ، هذا الكلام الواضح ، وتأمـل من جهة أخرى تلك الضجة الكبرى التي يثيرها هيكل في هذه الايام ، بعد عشر سنوات من الحرب ، وبعد أن نسي الناس ما قاله في الفترة الممهدة للحرب ـ اعني الضجة التي أقام بها الدنيا واقعدها حول ما يسميه « بالعبارة الكارثة » الـواردة في رسالـة سرية من حافظ اسماعيل ، مستشار الأمن القومي المصري ، الى كيسنجر ، نظيره الأمـريكي ، وتحـدث فيهـا اسماعيل عن نوايا مصر في جعل الحرب محدودة وعـدم توسيع جبهاتهـا او تعميق مسارها . . ألم يقل هيكل اكثر من هذا قبل وقوع الحرب ، في مقالات علنية لا في مذكرات سرية ؟ هل كانت أمريكا مضطرة الى انتظار الرسالة السرية حتى تعـرف نوايا مصر في الحـرب ؟ والأهم من ذلك ، ألـم يكن هيكل نفسـه من أهـم المروجـين لسياسة احتلال مساحة محدودة من الأرض ، والثبـات فيهـا ، وتحريك الأزمة كلها من خلالها ـ وهو ما حدث بالضبط في حرب ١٩٧٣ ؟

٢٤ ــ المقال السابق نفسه .

ان في وسع هيكل ، بالطبع ، أن يردّ بقوله ان ما كتبه قبل الحرب شيء ، وما حدث في الحرب الفعلية شيء آخر . فقد أتت الحرب نفسها بمفاجأة لمخططي سياسة تحرير مساحة محدودة من الأرض : هي في الواقع المفاجأة التي كان يدخرها شعب مصر « لعبقرية » السياسيين ، عندما تمكن أبناء الشعب في جيشهم من العبور بسهولة غير متوقعة ، وأحرزوا نجاحا سريعا قليل التكاليف ، مما أوقع المخططين العباقرة في حيرة ، واوجد موقفا جديدا لم يتوقعه واضعو سياسة الحرب المحدودة ، وعلى رأسهم هيكل . ولكن ، هل كان من المعقول ان يحدث تغيير مفاجىء للخطط السياسية في اعقاب هذا النصر الأول السريع ، بعد ان ظلت الدبلوماسية الرسمية ، من سرية وعلنية ، وأجهزة الاعلام الساداتية والهيكلية ، تبني كل شيء على اساس حرب محدودة تحرر قطعة أرض صغيرة وتحتفظ بها ؟ لو كان المخططون والكتاب الصحفيون العباقرة ، قد وضعوا منذ البداية بدائل ، وعملوا حسابا للموقف الذي تحقق ، ضمن هذه البدائل ، لربما امكن عندئذ ان تتغير السياسة بسرعة تمشيا مع الوضع الجديد . ولكن كل شيء كان مرسوما على أساس حرب التحريك المحدودة ، ولم تنتظر امريكا رسالة حافظ اسماعيل السرية لكي تعرف ذلك ، بل كان يكفيها ان تثابر ـ كما ارجح انها فعلت ـ على قراءة هيكل .

يبقى أمامنا أن نتساءل : ما تأثير السياسة التي اتخذت مجرى

جديدا كل الجدة في عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ ، على التطورات التالية في مصر وفي العالم العربي ؟ ان هاتين السنتين تحملان ، في رأيي ، بذرة معظم التطورات التالية . واذا كان هيكل قد قام بالدور الذي حددنا معالمه في تهيئة الأذهان لتحول حاسم في السياسة المصرية ، ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٢ ، واذا كان قد غير اتجاهه تغييرا جذريا ، مع تغير الحاكم وسياسته ، خلال هاتين المرحلتين ، فإن معنى ذلك ان مسئولية هيكل عن التطورات السلبية المتأخرة للعهد الساداتي مسئولية لا شك فيها . صحيح ان السنين تضيف عوامل ومتغيرات جديدة ، ولكن هذه كلها إضافات للأسس الأولى التي أرسيت في هاتين السنتين الأوليين ، وعلى رأسها التحالف مع أمريكا ، والحرب المحدودة بهدف الصلح الذي تتوسط فيه امريكا ، والامتناع عن التسلح عن طريق السوفيت والالتجاء الى أمريكا ، نفس البلد الذي يقدم لخصمنا سلاحه ويعلن على الملأ انه يضمن تفوقه .

ومنذ اللحظة التي قررنا فيها اللجوء الى امريكا ، لكي تتوسط بيننا وبين اسرائيل ، ومنذ اللحظة التي رفضنا فيها السلاح السوفيتي لكي نختار بدلا منه سلاحا أمريكيا ، حسمت أمور عديدة تحقق الكثير منها فيما بعد . فهذا القرار ينطوي ، بصورة جنينية ، على فكرة الصلح مع اسرائيل ، وجعل العداء للسوفيت هدفا رئيسيا لسياستنا ، والتعاون مع أمريكا ، وتطبيق افكارها في حياتنا الداخلية ، وخاصة الاقتصاد .

ولكي ندرك مرارة هذه الحقيقة ، وخاصة في ضوء الضجة التي يثيرها هيكل هذه الأيام ضد العهد الساداتي الذي نسي انه كان فيلسوفه الأول خلال السنوات الأولى والحاسمة من تاريخه ، دعونا نفكر بامعان في مغزى عبارة هامة قالها موشي دايان ، تعليقا على رحلة السادات بالطائرة الى القدس في نوفمبر ١٩٧٧ : « لقد أديرت محركات طائرة السادات حين طرد الخبراء السوفيت وبدأ سياسة تنويع السلاح وقبل بإتفاقات فك الاشتباك بكل ما يعنيه ذلك من استبعاد للخيار العسكري »[٢٥] .

هذا كلام خطير بقدر ما هو واضح : فأولئك الذين رسموا سياسة تنوع التسلح عن طريق طرد الخبراء السوفيت والترويج لفكرة التقارب التدريجي مع أمريكا ، هم الذين أداروا محركات طائرة السادات المتجهة الى القدس ، لأنهم ربطوا مصير بلادهم وجيوشهم بمصير راعية اسرائيل وحاميتها . ومن الواضح ان هيكل ، بالنسبة الى هؤلاء ، كان كبيرهم ومفكرهم وموجههم ، فالبذرة الأولى قد غرستها يد هيكل ، وما يتبقى بعد ذلك ليس الا من قبيل التفاصيل . ومع ذلك فان هيكل نفسه هو الذي يأتي في أيامنا هذه ، وينعي على السادات ركوبه تلك الطائرة التي كان هو ذاته قد زودها بالوقود وأدار لها المحركات

---

٢٥ ـ النص مأخوذ عن محاضرة للأستاذ توفيق ابو بكر في رابطة الاجتماعيين بالكويت ، في ١٩٨٣/٤/٢٥ ، وعنوان المحاضرة هو « الولايات المتحدة والصراع العربي الصهيوني » .

أتريد ، أيها القـارىء ، معرفـة الأصـول الأولى للكارثـة الحالية ، و« الجذور » ؟ اقرأ هذه الصفحات ثانية ، وفكر فيهـا بإمعان .

الفصل التاسع

عمان

الفصل التاسع

عمنا سام

لست أدري لم اختار هيكل أن يوجه كتابه عن السادات الى الجمهور الامريكي على وجه التحديد . ولكن الأمر المؤكد هو أنه ، طوال هذا الكتاب ، كان يضع في ذهنه هذا الجمهور وهو يشرح هذه النقطة أو تلك ، ويقوم بهذا التحليل أو ذاك ، مما أعطى الكتاب ، في مواضع غير قليلة ، طابعا غير مألوف لدى القارىء العربي .

فمنذ اللحظة الاولى ، يركز هيكل على صفة « النجومية » ، وعلى « صناعة النجم » ، وكأنها هي التي تلخص شخصية السادات ، مع انها ـ من وجهة نظر كاتب هذه السطور ـ لا تزيد عن كونها أسلوبا ملائما لجمهور أجنبي اعتاد التهريج السينمائي حتى اصبحت صفة « النجومية » أساسية عنده ، حتى في اختياره لرئيس جمهوريته . وهكذا يتحدث « خريف الغضب » في مقدمته عن نجوم العصر ، فيضع ضمنهم « جاكلين كندي » ، ويشعر القاريء العربي بأنه تلقى لطمة وهو يقرأ عن هذه النماذج المنحلة ، وإن كان القاريء الأمريكي لا يرى أية

غرابـة في ذلك . والواقـع أن السـادات لـم يكن في وقــت من الأوقات نجما بالنسبة الى شعبة ، أعني المصريين والعـرب على حد سواء ، بل كان نجما في نظــر الأمــريكان وبعض الأوروبيين ، وذلك لأسبـاب لا علاقـة لهـا بشخصــه ، وإنمـا بسياسته .

إننا نعلم جميعا ان أجهزة الاعلام الغربية ، والأمريكية بوجه خاص ، قد تعمدت أن تضخم صورة السادات ولم يكن ذلك راجعا فقط الى إعجاب هذه الأجهزة بذلك الصـديق المخلص الجديد ، أو إلى صنفات معينة في شخصيته أهّلته لكن يكون في نظرنا « نجما » ، وإنما كان يرجع قبل كل شيء إلى رغبتهـم في الحصـول منـه على المزيد من التنـازلات ، عن طريق خدعــة الاعجاب الاعلامـي الزائـد . فقـد كان من الواضـح ان لدى السادات ، شأنه شأن معظم الحكام الفرديين ، وربمـا بصـورة أشد تطرفـا من الباقـين ، ميلا شديدا إلى الاحسـاس بأهميتـه وخطورتـه ، وكان ذلك يتجلى بوضـوح حـين تنشر الصـحف المصرية ، على الدوام ، تعليقات الصحف والاذاعات الاخرى على خطاباته لكي تبين مدى إعجاب الآخرين به . وقد أتقـن الأمريكيون فن دراسة نقاط الضـعف في شخصيات الـزعماء ، وخاصة في العالـم الثالث ، للاستفادة من نقـاط الضـعف هذه بقدر ما يستطيعون . وهكذا كان كل مقال يكتب عن السادات في صحيفة أمريكية ، وكل صورة له ، أو لأسرته ، على غلاف

مجلة أمريكية ، تعني مزيدا من التنازلات ، ومزيدا من الترحيب بالنفوذ الأمريكي ، ومزيدا من الامتيازات الاقتصادية أو العسكرية التي تمنح للغرب بوجه عام .

لم تكن المسألة إذن مسألة « نجومية » ، وإنما كانت « صناعة النجم » هذه ، في حقيقتها ، استغفالا واستغلالا لغرور حكام العالم الثالث . ومع ذلك فان هيكل أراد في كتابه أن يصحح فكرة الجمهور الأمريكي عن « معبوده » الجديد ، وأن يرسم له الصورة التي يعتقد انها حقيقية ، في مقابل الصورة المتطرفة في الإعجاب ، التي صورتها أجهزة الاعلام الأمريكية للسادات . ولكن ، ما الذي يدعونا الى تصحيح فكرة المجتمع أو الرأي العام الأمريكي عن السادات ، وما الذي سنجنيه من ذلك ؟ إن أمريكا هي العدو الأول لأماني الشعب العربي وتطلعاته ، فلماذا نجهد أنفسنا لكي نقدم إليها الصورة الصحيحة ـ إن كانت بالفعل صحيحة ؟ لماذا لم يوجه الكتاب ، مثلا ، إلى المعسكر الاشتراكي ، أو إلى العالم الثالث ، أو إلى الشعب العربي ، ولماذا يحرص المؤلف منذ الصفحات الاولى على أن يؤكد أن صورة السادات عند الغرب لم يكن لها ما يبررها ؟ ألا يزال عندنا نوع من « الأمل » في أمريكا حتى نتعشم منها خيرا عندما تصحح فكرتها عن زعمائنا ؟

إن دور النشر الأمريكية أقدر من غيرها على ترويج الكتب . هذا صحيح ، ولكن هناك فارقا بين كتاب ينشر في دار

أمريكية ، وكتاب يؤلف من وجهة نظر تستهدف مخاطبة الجمهور الأمريكي ، وأعتقد أن اهتمام هيكل بمحور « الممثل » « والنجم » ، وبالعوامل والعقد النفسية في النشأة الاولى ، واستخدام تشبيه « ترومان » لتبرير تعاونه مع السادات في السنوات الأولى من حكمه ، كل ذلك يدل على أن هيكل كان يخاطب في الأساس جمهورا أمريكيا ، ولم يكن ينشر في دار أمريكية فحسب .

على أن الهدف الذي كان يرمي إليه هيكل من هذا كله هدف عقيم . فمن العبث أن يحاول أي مؤلف تصحيح صورة حاكم [illegible] الجمهور الأمريكي لأسباب لا علاقة لها ، في الواقع ، بشخصيته ومسلكه . إن ما يهم أمريكا ، شعبا وحكومة وصحافة وإعلاما ، هو المصالح ، وليس خفة دم هذا الحاكم أو طيبة قلب ذاك . ومن الممكن بالفعل أن يعجب الأمريكيون بحاكم من أجل هذه الصفات الشخصية ، ولكن « بعد » أن يكون هذا الحاكم قد خدم مصالحهم . أما إذا تعارضت سياسته مع المصالح الأمريكية ، فعندئذ لن يشفع له في نظرهم أن يكون في خلقه الشخصي قدسيا . وهكذا فإن الأمريكين لا يكونون صورتهم عن أي زعيم على أساس فضائله الداخلية أو الشخصية ، أو حتى طريقته السليمة في الحكم ، بل على أساس ما يمكن أن يجنوه منه من فوائد . فالسادات كان معبود الأمريكيين ، لا لأن شخصيته كانت محببة لديهم ، بل لأنه حقق

لهم أكثر مما كانوا يحلمون في الشرق الأوسط كله : فأخرج السوفيت من أهم بلد عربي ، وفتح الأبواب للاسلحة والخبراء الأمريكيين ، وأعطى الاستراتيجية الأمريكية قواعد أو ركائز أو تسهيلات (سمّها ما شئت ، فالحقيقة واحدة) ، وجعل محاربة الشيوعية هدفا له الأولوية المطلقة على مكافحة الصهيونية ، وتطرف في تحديد المقصود « بالشيوعية » حتى أدمج فيها كل حركة وطنية تكافح الاستعمار والاستغلال . اما مسألة ما اذا كان حاكما جيدا أو سيئا ، وما اذا كان قادرا على حل مشاكل شعبه أم مشاركا في تخريبه ، فهذه مسائل لا تهم الأمريكيين كثيرا . وكم من طاغية في أمريكا اللاتينية ، مثلا ، كانت فضائحه وجرائمه على ألسنة الناس في العالم أجمع ، ومع ذلك كان الامريكيون معجبين به أشد الاعجاب ، ويساعدونه بكل طاقاتهم في تثبيت حكمه الارهابي : كما حدث في حالة سوموزا ، وباتستا ، وما يحدث حاليا في حالة بينوشيت . وأستطيع ان أقول ان هذا ليس الموقف الرسمي للحكومة الامريكية وحدها ، بل أن الشعب الامريكي ذاته قد تشكلت عقوله بحيث يوجه إعجابه بأي حاكم أجنبي في اتجاه مصالحه ، لا في اتجاه مصالح البلد الذي يحكمه هذا الحاكم . وهكذا فان محاولة هيكل أن يفتح عيون الامريكيين على حقيقة السادات محاولة فاشلة ، بل إنها تفترض منذ البداية صفاتاً في الجمهور الامريكي لا يمكن ان توجد فيه . وهنا لا يملك المرء الا ان يكرر السؤال الذي بدأنا به هذا المقال : لماذا

اختار هيكل الجمهور الامريكي لكي يوجه اليه حديثه في هذا الكتاب ؟

إن المرء يستطيع أن يقول ، باطمئنان ، ان علاقة هيكل بأمريكا علاقة حميمة ، خاصة جدا . فمنذ البداية كانت امريكا هي الموضوع الرئيسي الذي دار حوله الخلاف بينه وبين الأجنحة الناصرية الأخرى ، فضلا عن اليسار بطبيعة الحال. وكان إيمان هيكل بقوة امريكا وتأثيرها ودورها وعدم إمكان تجاهلها ، إيمانا راسخا لا يتزعزع ، أما الكتابات التي هاجم فيها امريكا في السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر فلا تمثل أي اتجاه دائم لديه ، وإنما كان هذا الهجوم ضرورة تكتيكية في ظل الظروف السائدة بعد هزيمة ١٩٦٧ . وما أن استتب الأمر للسادات ، حتى عاد الاتجاه الامريكي للظهور ، وكان التحول الذي طرأ على اتجاه السياسة المصرية نحو أمريكا في عام ١٩٧٢ ، والذي دعا اليه هيكل بحماسة بالغة ، هو نقطة البدء الحقيقية في التغلغل الأمريكي في المنطقة العربية كلها ، وليس اتفاقية فض الاشتباك ، كما يؤكد هيكل باستمرار .

ومما يلفت النظر أن هيكل ، في كتابه عن السادات وفي احاديثه الصحفية عن فترة ١٩٧٣ و١٩٧٤ ، التي تزايدت بصورة ملموسة في الآونة الأخيرة ، لم يذكر شيئا عن حصار الجيش الثالث في الضفة الشرقية للقنال من حيث هو أحد الأسباب الرئيسية للتوقيع على اتفاقية فصل القوات ، أو فض

الاشتباك ، التي بدأ فيها الخلاف يظهر بين السادات وهيكل . ذلك لأن الحصار الكامل الذي فرضته اسرائيل على هذا الجيش ، كان هو الأساس الأهم للصفقة التي تمت بين السادات وامريكا : إذ تعهدت هذه الأخيرة بأن تحفظ للسادات ماء وجهه ، ولا تسمح لاسرائيل بتجويع الجيش الثالث او بدفعه الى الاستسلام ، وفي مقابل ذلك اعترف السادات لامريكا بالجميل ، لكي يظل قادرا على القول ان جيوشه كانت في الضفة الشرقية حتى نهاية الحرب ، ووقع اتفاقية فض الاشتباك الأولى ، وهذه جرّت الثانية ، كما جرت معها مزيدا من النفوذ لأمريكا في المنطقة . فما سبب تجاهل هيكل لهذا العامل الحاسم ، على الرغم من أحاديثه المسهبة حول هذه الفترة ؟

لقد تم هذا الحصار وتحقق بمساعدة مباشرة من أمريكا ، وكانت الدبابات تنزل من سفن الشحن أو الطائرات الأمريكية الى ساحة المعركة مباشرة ، كما لعبت الأقمار الصناعية ووسائل التجسس الأمريكية دورا أساسيا في تحديد مكان الثغره التي أدت آخر الأمر الى هذا الحصار ، وهو موضوع شرحه هيكل بالتفصيل في مقالاته التي كتبها عن هذه الفترة . فما الذي جعله يمتنع عن الخوض في هذا الموضوع الحيوي في كتابه الأخير ؟ هل يرجع ذلك الى انه لم يشأ ان يقول للجمهور الامريكي ، الذي وجّه اليه الكتاب ، ان الوضع السيء الذي وجد فيه الجيش الثالث نفسه كان من صنع امريكا ؟ هل يرجع الى انه لم يشأ ان يتحدث

عن الصفقة التي يمكن أن تكون قد عقدت بين السادات وامريكا ، بحيث يقايض السادات انقاذ امريكا له من الكارثة المحلية والفضيحة الدولية المترتبة على خنق الجيش الثالث وإحكام القبضة على عنقه بالتدريج ، مقابل ابداء الاستعداد التام لقبول المطالب الامريكية ؟ اننا هنا ندخل منطقة البحار العميقة ، التي تمس صميم الصفقات والاتفاقات السرية ، والتي يصعب الكلام عنها الا عن طريق الاستنتاج . ولكن تسلسل الأحداث جاء كما يلي : اخذت السياسة المصرية تتجه منذ عام ١٩٧١ ، نحو الميل الى الطرف الأمريكي والابتعاد عن الطرف السوفيتي ، وتقدم هيكل بالنظرية التي تقول بإمكان إيقاف فاعلية امريكا في مساعدتها لاسرائيل في ظل ظروف وتوازنات دولية معينة ، وطبقت هذه السياسة عمليا ، وكانت أهم خطواتها طرد الخبراء السوفيت بطريقة مدوية ، ثم قامت حرب اكتوبر ، وكانت لدى امريكا معرفة كاملة بالطبيعة المحدودة لهذه الحرب ، في ضوء اتجاهات السياسة المصرية كلها ، وفي ضوء كتابات هيكل الصريحة والواضحة حول هذا الموضوع . ولكن السياسة الجديدة التي كان النبيّ المبشر بها هو هيكل ، أتت بنتائج عكسية تماما : فبدلا من « تحييد » أمريكا ، قامت أمريكا بأعظم وأسرع عملية انقاذ في التاريخ ، زودت فيها اسرائيل عبر جسر جوي جبار بما يكفيها للصمود في وجه الأداء المصري والسوري الممتاز في الأيام الأولى للحرب ، ثم الانتقال الى الهجوم الذي اسفر ، في سوريا ، عن تهديد دمشق

ذاتها ، وفي مصر عن ثغرة اخذت تتسع بالتدريج حتى حاصرت الجيش الثالث كله حصارا كاملا . كان هذا الانقلاب في الميزان العسكري من صنع امريكا في المحل الاول ، وعندما امسكت بكل الخيوط في أيديها بدأت تحركها كما تشاء ، وبدلا من ان تتمكن السياسة المصرية من « تحييدها » ، أصبح الجيش الثالث وسمعة مصر وهيبة النظام ورجاله رهينة في أيديها ، وبدأ مسلسل توقيع الاتفاقات الاستسلامية .

هذا الجانب من الموضوع سكت عنه هيكل تماما وسط الضجيج الهائل الذي اثاره في كتابه الأخير ، وفي أحاديثه الصحفية الكثيرة هذه الأيام ، حول حرب اكتوبر . فهل كان سكوته شعورا بالحرج من أن تنكشف النتائج المأساوية لدعوته الى سياسة « التحييد » أم كان امتناعا عن الغوص في البحار العميقة ، التي تهدد من يقترب منها بالغرق ؟

أيا كان الجواب ، فإن هذه هي المرحلة التي اقام فيها السادات اتصالا وثيقا مباشرا مع الأمريكيين ، وفيها يروي هيكل قول السادات لكيسنجر ، عندما اجتمع به في بداية محادثات فض الاشتباك الأول ، « لماذا لم تأت من قبل ؟ » وفي رأيي الشخصي ان هذا الاتصال المباشر الذي اقامه السادات مع الأمريكيين منذ ذلك الحين،والذي ازداد توثقا مع الأيام خلال السنوات التالية ، كان من الأسباب الرئيسية للجفوة ثم الخلاف بين هيكل والسادات : اذ كان السادات قبل هذه الفترة يعتمد

كثيرا على هيكل في كل ما يتعلق بالاتصال بالأمريكيين ، على أساس الصلات الوثيقة التي كانت تربط هيكل بهم ، وعلى أساس ما كان شائعا عنه من أنه يفهم الأمريكيين اكثر من غيره . ولكن منذ ان اقام السادات جسوره المباشرة بنفسه ، ومنذ ان فتحت قنوات اتصال واسعة بينه وبينهم ، لم يعد في حاجة الى صلات هيكل او خبرته الأمريكية ، وبدأ يتجه الى الاستغناء عنه . وفي الوقت ذاته فإن هيكل ، عندما شعر بأنه يُستبعد بالتدريج ، أخذ يوجه انتقاداته الى سياسة السادات ، لا سيما وأن هذا الاخير قد سكر بنشوة الغرام الأمريكي الى حد أنه أوقع نفسه في أخطاء لا حصر لها ، بينما كان هيكل يعرف جيدا ان امريكا لا ترتبط طويلا بالعشيق الولهان بحبها اكثر مما يجب ، والذي يفصح عن هذا الحب علنا ودون مواربة . انها سرعان ما تنبذ كل من يفضح غرامه بها ، لأنها تفضل دائما العلاقات الخفية ، المستورة ، الشديدة الفعالية ، ولا بأس ـ حتى ـ من مهاجمة أمريكا في العلن من آن لآخر ، حتى تظل الروابط الخفية قائمة . . هذا هو قانون الغرام الامريكي الذي لم يفهمه السادات فدفع حياته ثمنا لعدم الفهم .

* * *

وهنا نصل الى منطقة اخرى من مناطق البحار العمقية ، مرّ عليها هيكل في كتابه سريعا ، وعالجها بطريقة غير متعمقة ، مع أنها كانت تستحق وقفة متأنية وتحليلا متعمقا ـ وأعني بها موضوع مقتل السادات ، واحتمال وجود دور لأمريكا فيه . فهيكل قد

حرص على تبرئة الامريكيين من أية شبهة في هذا الحادث ، بعد مناقشة موجزة تنم عن رغبته في ان ينفض يديه بسرعة من هذه المسألة الشائكة ، في الوقت الذي حرص فيه على ان يتقصى خبايا مسائل اقل اهمية من هذه بكثير .

فحين طرح هيكل النظرية القائلة بوجود مؤامرة امريكية في قتل السادات ، استبعدها بسرعة لثلاثة اسباب تبدو في نظرنا غير مقنعة على الاطلاق :

السبب الاول أن نظام السادات كان أحد الدعائم الرئيسية في سياسة ريجان المعادية للشيوعية في المنطقة ، واستطاع التدخل في بعض بؤر المتاعب الأفريقية (متاعب من وجهة نظر امريكا بالطبع ، أما من وجهة نظر العالم الثالث فهذه « المتابع » هي حركات تحرير وطني) . والسبب الثاني أن الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل سقوط شاه آخر بعد اقل من سنتين من سقوط الشاه الأصلي في ايران . . اما الثالث فهو أن من الصعب تصور وجود تلاق في الفكر أو العمل بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين التنظيمات الإسلامية .

هذه الاسباب لا تكفي على الاطلاق لتبرئة امريكا من تهمة التآمر على قتل السادات ، إذ أن محاربة السادات للشيوعية تتوقف على مقدار فاعليته كحاكم »بين شعبه والشعوب العربية الاخرى . أما فقدان السادات لفاعليته بين الشعوب العربية فكان قصة معروفة ، بدأت منذ فض الاشتباك الأول ، وانتهت

الى قطيعة تامة بعد اتفاقية كامب ديفيد ، وهـو امـر ينبغـي ان تضعه امريكا في اعتبارها عندما تحسب مدى فائدته لها كصديق .
وأما فاعليته بين شعبه فقد شهد بضياعها كثير من الامريكيين ، ومنهم سفراء في المنطقة نشروا تقارير مشهورة تضمنـت نقـدا مريرا لسياسـة السـادات . وكان الشاهـد الاكبـر على فقــدان السـادات فاعليتـه كصـديق ينفع أمـريكا في تحقيق سياستها في المنطقة ، هو حركة اعتقالات سبتمبر ، التي اغضبت الجميع ، ولم تترك للسادات صديقا في مصر ، بدءا بأقصى اليمين ، حتى اقصى اليســار ، مرورا بأحــزاب المعارضـــة والسياسيين المخضرمين . فما قيمة هذا الصديق الذي يفقد فاعليته في بلده الى هذا الحد ؟ ان من الملفت للنظر ان حجم الانتقادات التـي وجهت الى سلوب حكم السادات ، بعد اعتقـالات سبتمبـر ، التي سبقت اغتياله بشهر واحد ، كان هائلا الى درجة ادهشت السادات نفسه . فقد ثارت الصحافة الغربية ، في امريكا بوجه خاص ، ثورة عارمة على ممارسات السادات غير الديمقراطية وهو امر ليس من عادتها ان تقوم به بالنسبة الى اصدقائها في امريكا اللاتينية ، مثلا ، الذين يصفّون الأ... من معارضيهم جسديا دون ان تتحرك الصحافة الا فيما ندر . وهكذا كان واضحا ان نفس أولئك الذين « صنعوا النجم » قرروا ان وقت افوله قدحان.

أما عدم تحمل أمريكا لسقوط شاه اخر بعد اقل من سنتين ، فهو حجة لا تقنع احدا ، إذ أن امركا تستطيع ان تتحمل سقوط

الف شاه مادامت واثقة من أنها ستجد البديل . ولا ننسى أن الشاه كان يؤكد دائما ان امريكا هي التي القت به بعيدا « كالفأر الميت » ، بل إن احتمال اشتراك مخابراتها في التعجيل بموته قد أثير بقوة في كثير من الأوساط .

تبقى أخيرا مسألة استبعاد وجود تلاق في الفكر او العمل بين المخابرات المركزية الأمريكية والتنظيمات الاسلامية . وهذه في الواقع حجة شديدة السذاجة ، لا يملك المرء ازاءها الا ان يقول لهيكل : أنت تعرف خيرا من ذلك ! فالمخابرات الأمريكية لن تتلاقى مباشرة بالطبع ، في الفكر او العمل ، مع أي تنظيم كذلك الذي قتل السادات ، وإنما ستعمل من خلال « وسائط » قريبة من فكر هذا التنظيم وعمله ، وما أكثر هذه الوسائط في البلاد الاسلامية . ولا بد أن يكون أسلوب العمل هو الاتصال عن بُعد . بحيث لا يشعر المنفذون الأصليون بوجود اي تحريض خارجي على الاطلاق ، وتظل دوافعهم الدينية الأصلية هي التي تدفعهم طوال الوقت . وينبغي ان نلاحظ ان تغلغل اجهزة المخابرات العالمية في الجماعات الشديدة التطرف ، يمينا ويسارا ، هو اسهل الأمور ، وهو حادث بالفعل على نطاق عالمي . وعلى اية حال فإننا هنا ندخل منطقة من اخطر مناطق البحار العميقة ، التي ينبغي فيها على شهر زاد ان تسكت عن الكلام المباح ، وإلا فلن يدركها الصباح !

إن ابداء رأي قاطع في مثل هذه الأمور التي هي بطبيعتها

شديدة الخفاء ، والتي تدبر بإحكام وتكتم بالغ ، هو امر مستحيل . ويكفي ان رئيس جمهورية امريكي مشهور ، هو جون كنيدي ، قد اغتيل في ظروف مريبة الى اقصى حد ، وشعر الكثيرون ان اجهزة امريكية خفية هي التي قتلته ، ولكن الموضوع ظل حتى يومنا هذا غامضا ، يثير علامات استفهام كبرى ، بعد ان قدمت هذه الأجهزة شخصا على انه القاتل ، ثم قتلت هذا القاتل ، ثم قتلت قاتل القاتل . . انها أمور لا تتكشف حتى لأدق لجان التحقيق ، ولكن « الضحايا » ، الذين يعرفون اساليب هذه الاجهزة خيرا منا جميعا لانهم تعاملوا معها طويلا ، غالبا ما يفهمون طبيعة ما حدث . فقد ادرك شاه ايران ، كما قلنا ، ان سلبية قادة جيشه ازاء المظاهرات العارمة في أيامه الأخيرة لا بد ان تكون راجعة الى اوامر من أسيادهم الأمريكان ، وكانت زوجة السادات وأسرته ، كما قال هيكل نفسه ، من اقوى المؤيدين لنظرية المؤامرة الأمريكية ، ولم يعدلوا عنها لأسباب منطقية ، بل لأسباب مصلحية : « فقد وجد افراد الأسرة انها (اي النظرية) لا تستطيع ان تصل بهم الى شيء ، بل بالعكس قد تضر مصالحهم مع قوة يعتبرون انها قادرة على حمايتهم » .

انها كما قلت موضوعات شديدة التعقيد ، يكاد يستحيل كشف وقائع ملموسة تلقي الضوء على خباياها ، وكل ما يملكه المرء ازاءها هو ان يستنتج ، ويرجح الغرض الذي يفسر اكبر عدد

ممكن من الظواهر . واحسب ان افتراض وجود مؤامرة امريكية ، بالصورة التي عرضناه بها ، أقدر من غيره على تفسير اشياء كثيرة فضلا عن انه لا يتعارض مع الفرضين الآخرين ، أعني وجود مؤامرة داخل الجيش ، ووجود تنظيم اسلامي واسع النطاق هو الذي تولى تنفيذ العملية . فمن الممكن ان يكون لهذه الجهات الثلاث معا دور في تلك العملية التي خططت ونفذت بإحكام يفوق الوصف ، وهو احتمال لم يعرض له هيكل ، في حرصه الشديد على استبعاد الفرض الامريكي بسرعة .

ولكن ، إذا تركنا هذا الميدان الشديد الغموض ، المحفوف بالمخاطر ، وانتقلنا الى التحليل السياسي المرتكز على ارض اكثر صلابة ، لوجدنا ان امريكا ، إن لم تكن قد خططت لقتل السادات ، فإنها حكمت عليه بالاعدام سياسيا ، بعد ان استهلكته واستنفذت اغراضها منه .

فبعد ان وقع السادات معاهدة كامب ديفد ، بما فيها من بنود مفصلة بشأن انسحاب اسرائيل من سيناء والتطبيع معها ، وبما فيها من اشارات قليلة شديدة الغموض عن القضية الفلسطينية ، وبعد ان ثارت ثائرة العالم العربي على هذه المعاهدة وقطعت معظم بلاده علاقاتها بنظام السادات ، كانت امريكا تستطيع ان تسلك طريقا من طريقين :

الطريق الأول هو ان تدعم السادات وتضمن مستقبله السياسي عن طريق اثبات صحة موقفه امام العالم العربي .

ويقتضي هذا الطريق ان تتطور الاتفاقية بحيث تصبح اكثر من مجرد صلح منفرد بين اسرائيل ومصر ، أي أن تسيره كما طالب [redacted]

سيكون فيه انقاذ للسادات ، لأنه رهن مستقبله السياسي ، وعلاقاته مع العالم العربي بأسره ، على هذا التوقع . ولو سارت امريكا ، ومعها اسرائيل ، في هذا الطريق ، وحققت للسادات على الاقل جزءا مما يريد ، خارج نطاق التسوية المحلية بين مصر واسرائيل ، لاستطاعت ان تعيد اليه مكانته في العالم العربي ، ولأمكنها ان تربط كثيرا من البلاد العربية بعجلة الاتفاقية الجديدة .

ولكن هذا الطريق كان ينطوي ، من وجهة نظر امريكا ، على عيوب واضحة : اذ أنه يؤدي الى دفع ثمن باهظ ، هو الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة بعد ١٩٦٧ ، والى توحيد البلاد العربية في خط سياسي واحد ، يقوي جبهتها في المطالبة بالحقوق الفلسطينية ، وقد يؤدي في المدى الطويل الى انشاء كيان فلسطيني على مستوى معقول ، فضلا عما تؤدي اليه التسوية الشاملة ، بشروط معقولة ، من توفير ضخم للأموال والطاقات العربية في اتجاه التنمية التعمير .

أما الطريق الثاني ، الذي يرجح ان اسرائيل قد الحت عليه ، واستجابت لها امريكا بعد ان اقتنعت بأنه اكثر تحقيقا لمصالحها المشتركة ، فهو عدم مجاملة السادات ، وعدم بذل اي

جهد من اجل انقاذه من ورطته ، مادام قد ادى مهمته الأساسية ، وعدم التنازل لبقية العرب عن شيء . هذا الطريق يتضمن من وجهة النظر الأمريكية ـ الاسرائيلية ، مزايا عديدة : بقاء العالم العربي ممزقا وفي حالة ضعف شديد ، والاستفراد بكل دولة بعد الاخرى وعزلها عن الباقين ، وإخراج مصر نهائيا من الصراع العربي الاسرائيلي وضمان حرية الحركة الكاملة لاسرائيل . وهكذا فإن مزايا هذا الطريق اعظم بكثير ، من وجهة نظر جبهة الأعداء ، من الطريق الآخر .

وكان الثمن الوحيد الذي ينبغي دفعه في حالة اتباع هذا الطريق الثاني ، هو التضحية بالسادات . . .

والآن ، تخيل نفسك ايها القارىء امريكيا مخلصا ، حريصا على مصلحة بلدك وعلى ارتباطات هذا البلد بالدولة الصهيونية التي تحقق له كل اهدافه في المنطقة ، فأي الطريقين تختار ؟ تهديدك لمصالح بلدك وحلفائك من اجل فرد واحد مخلص لك ، أم التضحية بالفرد وبمستقبله ، مهما كان اخلاصه ، من اجل ضمان مصالحك وزيادة مكاسبك ؟

لقد كان جواز المرور الوحيد لدى السادات امام العالم العربي ، والمبرر الوحيد لتوقيعه المعاهدة ، هو ان تستمر قوة الدفع الى ان تتحقق التسوية الشاملة . ولكن الطرف الآخر ـ وله كل الحق فيما فعل ، من وجهة نظره الخاص ـ وجدها فرصة

ذهبية لتوريطه ، وتركه عاريا في منتصف الطريق ، فضمن المكسب وتجنب الخسارة وهكذا ، فمنذ اللحظة التي ساندت فيها امريكا حليفتها اسرائيل في تعنتها ومنذ اللحظة التي قررت فيها امريكا الا تضغط على اسرائيل الى الحد الذي يلزمها بالسير قدما نحو التسوية الشاملة منذ اللحظة كانت قد حكمت على السادات بالاعدام .

ولقد ادرك هذه الحقيقة بوضوح تام السفير الامريكي الاسبق في مصر ، لوشيوس باتل ، وعبر عنها بكلمات بالغة الدلالة في المقال الذي كتبه في رثاء السادات : « كلما كانت الولايات المتحدة تضغط عليه للدخول في كامب ديفد ، كان تعرضه للخطر يزداد ، فلم نقبل نحن ولا الاسرائيليون نتائج الأخطار التي كنا ندفعه اليها . ولقد كانت الطريقة الوحيدة التي كان يمكن بواسطتها ان يصبح لاتفاقيات كامب ديفد معنى في نظر السادات هي افتراض امكان التقدم نحو صلح شامل ، وكان من الضروري ان تظهر علامات واضحة على ان طريقه هو الصحيح ، حتى يحذو العرب الآخرون في الوقت المناسب حذو السادات ، وهو امر كان يقتضي فهما من جانب اسرائيل وضغطا من الولايات المتحدة على الفريقين لتحريك مباحثات الحكم الذاتي وخفض عدد المستوطنات في الضفة الغربية . ولكن بدلا من ذلك ، زادت المستوطنات ، وأضيفت اهانة ضرب المفاعل في العراق وقصف بيروت . ولم تفعل الولايات المتحدة شيئا . .

وهكذا اصبح السادات شهيدا لنفسه وللعالم الغربي ، ولكن ليس للشرق الأوسط ، سواء منه العربي او الاسرائيلي .

« لقد كانت المجموعة الامريكية التي شيعت جنازته ضخمة الى حد لم يعرف له مثيل من قبل . وهكذا فإننا بعد أن خذلناه حيا ، قد احتضنّاه ميتا »[1] .

في هذه الشهادة المباشرة ، يظهر بوضوح ان السادات كان ، بالنسبة الى امريكا ، قد استنفذ اغراضه ، وادى ما هو مطلوب منه ثم تُرك لمصيره المحتوم . ولم يعد مجديا بعد ذلك ان يحاول استرضاءهم بتصريحات حامية ضد الشيوعية ، إذ أنهم كانوا قد اداروا له ظهورهم ، وعندما زارهم قبل مصرعه بشهرين ، كان واضحا أنه لم يعد في نظرهم الزعيم المفضل الذي كان . ومنذ كامب ديفد بل منذ زيارة القدس . ادرك اصدقاء أمريكا ، الأكثر منه ذكاء والأبعد منه نظرا ، ان السفينة غارقة لا محالة ، وهكذا قفز منها اسماعيل فهمي ، ثم منصور حسن ، ثم هيكل ، الذي كان على أية حال واعيا بأبعاد الأزمة قبل الجميع . ولو لم يكن القتل الفعلي قد تم بتدبير من امريكا ، لأمكن القول ـ على اقل تقدير ـ ان امريكا هي التي قيدت يدي السادات بالسلاسل ، وأمسكت برأسه وشدتها الى الوراء ، ولم يبق الا السكين التي تذبح .

---

١ ـ انظر مقال Anwar Sadat Remembered المشار اليه من قبل ، ص ٤٧ .
من ص ١٤١ الى ١٤٩

ومن هنا فاني ارى ان مرور هيكل السريع على مسألة دور امريكا في مقتل السادات واستبعاده اي فرض يحملها مسئولية ما حدث لصديقها العتيد ، هو امر لا يمكن تفسيره الا باحد امرين : اما ان هيكل يشعر بالخطورة الشديدة لخوض هذا الموضوع ، الذي لا بد ان يمتلىء بالوثائق والمعلومات عنه ، وإما أنه يريد ان يبعد عن ذهن القارىء أي احتمال لتورط امريكا ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في هذه العملية .

* * *

ان المنحى العام لكتابات هيكل ، في مراحلها المختلفة ، يقنع كل من يتابعها بدقة بأنه كان يرتبط بها في علاقة حميمة جدا ، أما الانتقادات التي يوجهها اليها فإنها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، لأن أصدقاء أمريكا ، اذا كانوا أذكياء ، لا بد ان يهاجموها من آن لآخر ، بل انها هي ذاتها التي تطالبهم بذلك .

وانا أعرف أن هذا الموضوع يثير حساسية خاصة لدى هيكل ، ولذلك فإنني سأتبع في اثباتي لما اقول ، اكثر الطريق امانا ، واعني به الاستعاضة بما يقول هيكل نفسه .

في احدى حلقات كتاب « مدافع آية الله » الذي نشرته « الوطن » ، يتحدث هيكل عن وساطة طلبتها منه امريكا من اجل حل مشكلة الرهائن الذين كانوا محتجزين في السفارة

الامريكية بطهـران ، مرة قبـل محاولـة امـريكا الفاشلة لانقـاذ الرهائن بالقوة الاولى في صحراء تاباز ، ومرة اخرى بعد قيام هذه المحاولة وفشلها الذريع . في المرة الاولى سأله هارولد سوندرز ، وكيل وزارة الخارجية الامريكية ، عما اذا كان على استعداد لمساعدة الرئيس كارتر فأجاب هيكل بأنه على استعداد لمساعدة الايرانيين ، ومن الواضح ان السؤال أهم ألف مرة من الجواب . فما الذي يدفع موظفا رسميا امريكيا الى ان يسأل صحفيا مرموقا في دولة يوجدبينهاوبين امريكا تضارب شديد في المصالح ، عما إذا كان على استعداد لمساعدة رئيس دولته ؟ وعلى أي اساس بني توقعه بامكان قيام هيكل بهذه الخدمة للرئيس الامريكي ؟

ولكن الأهم من ذلك هو الوساطـة التـي طلـب الى هيكل القيام بها، عن طريق رسالة بعثها اليه الأمريكيون : (والنص الآتي مصوّر من « الوطن » مباشرة) .(٢)

واتضح انها عبارة عن اقتـراخ ، القصـد منـه ان اقـوم انـا باستخدامه في محاولة جديدة لمفاتحه السلطات في طهران ، وكانوا يأملون ان اوافق على هذه الخطوة . وكانت الوثيقة غريبة بالفعل ولعل افضل طريقة لاظهار مدى ابتعاد التفكير الاميركي عن الواقع هو ان اورد الوثيقة كما هي :

« الفكرة هي ان يذهب هيكل الى ايران ، ويقـدم الى بنـي

صدر طريقة تمكن الايرانيين من استخدام كارثة عملية الانقاذ ، لاطلاق سراح الرهائن وان يضعوا نهاية لهذه القضية . كما يقوم هيكل باقناعه ان مثل العمل ، فرصة نادرة ليركب موجة قومية اسلامية لتدعيم مركزه ـ ويمكن تقديم نفس الفكرة الى الخميني باعتباره مشاركا في نفس الرغبة للتخلص من المشكلة » .

« ويمكن لهيكل ان يستفيد من النقاط التالية :

أ — ان نجاح الثورة الايرانية امر قد اتضح وتمت البرهنة عليه من جراء الهزيمة المخزية لبعثة الانقاذ الامريكية ، فلقد بين الله سبحانه وتعالى للعالم ، انه مهما كان العدو جبارا ، فان الحق في جانب المظلومين وفي هذه الحالة ستتاح للجميع الفرصة ليشهدوا التسامي الخلقي للجمهورية الاسلامية ولهذا :

ب ـ خدمت قضية الرهائن الغرض الذي كانت ترغب فيه ايران .

فقد كانت بمثابة الاداة التي اظهرت للعالم ،وبشكل مثير ، مساوىء حكم الشاه ودعم الحكومة الامـيركية له.ان عجز الحكومة الاميركية عن القيام بعملية انقاذ لهوالشهادة الثانية والاخيرة على عدالة اخـذ الرهائـن . (وعلى سبيل المثال: ادى الفعل الايراني الى رد فعل امريكي نتج عن فشله تأكيد للرسالة التي كانت ايران تود ان تنقلها

اساسيا) لذا لم يعد هناك اي حاجة للرهائن .

جـ ـ سيتم الافراج عن الرهائن ،لأن ايران لم تكن تنوي ابدا الحاق الاذى بهم ، وهـذه اللفتـة ستظهـر بشـكل مثـير وواضح مدى سماحة الاسلام ورحمته وليس هناك شعور بالكراهية تجاه الشعب الامريكي ، وانما ينصب الكره على الحكومة وحدها (فيطلق سراح الرهائن الان ، وليظهـر غباء الامريكيين وعدم مهارتهم اكثرمن ذي قبل ولتنقلهم الطائرات من تاباز نفسها امام مندوبي الصحف ولتدون كل ملاحظاتهم الساخـرة المستخفـة بالـولايات المتحـدة الخ . .) ولتظهـر ايران، والجمهـورية الاسلامية بمظهـر المنتصر ذي الاخلاق السامية .

د ـ وهكذا يظهر مختطفو الرهائن بمظهر المنتصرين والابطال القوميين فهم لم يلحقـوا الاذى باحـد ، كما انـهـم نفـذوا تعـاليم الامـام . وستقـوم الحكومـة بمكافأتهـم بسخاء ، ويعترف الامام بفضلهـم بشـكل خاص ، قد تكون هذه هي اخر فرصة لقوة المختطفـين لتـرك مجمـع السفارة دون حدوث ضرر لاحد في ايران .

هـ ـ يجب ان تعلن ايران نفسها قرار الافراج وكأنه حدث درامي يدل على الرحمة والعطف بالرهائن ، وهي خطوة اتخذها الخميني بنفسه . واجراءات الافراج عن الرهائن ستمنح ايران فرصة هائلة للدعاية ، تغطـي بهـا الخمسـة اشهـر

البائسة بمسحة من الاخلاق الحميدةُ الرحمة وهكذا تجدد ايران صورة الاسلام ، وهذا شيء يسعد كافة المسلمين في العالم . وتهاجم الحكومة الامريكية مرة اخرى لعدائها للقضايا العادلة ، وهذا لا يقلل من معركة ايران مع الحكومة الامريكية ولا يمثل اي نوع من المهادنة معها » .
انتهت الرسالة .

* * *

ولقد تلقيت رسائل اخرى من واشنطن بعد ذلك ، لكن حسب معلوماتي كانت ترد من طهران ، كانت كل خطوط الاتصال مع الامريكيين قد تداخلت بشكل يبعث على اليأس . فلم يكن لدى الايرانيين اي فكرة عن المفترض فيه ان يتحدث معهم ، ولا حتى عن تلك الاشارات التي كانوا يتلقونها من الامريكيين وتعبر عن الموقف الاميركي الحقيقي .

آمل أن تكون ، أيها القارىء ، قد قرأت هذه الصفحة المصورة بإمعان . فلم يكن ما تطلبه امريكا هنا من هيكل مجرد وساطة ، بل انهم اختاروه شخصيا للقيام بعملية خداع واستغفال لعقول الايرانيين ، مستغلا مشاعرهم الاسلامية ، بحيث يتعامل معهم كما لو كانوا مجموعة من الهنود الحمر البدائيين الذين يمكن الحصول على كل شيء منهم مقابل عقد من الخرز الملون . وبالطبع فقد تصور هيكل انه يدافع عن نفسه حين قال انه لم يقم بتنفيذ المهمة المطلوبة منه ، ولكن هذا ؛ في

الواقع ، ليس دفاعا على الاطلاق ، اذ ان المشكلة لا تكمن في التنفيذ او عدم التنفيذ ، وانما في الطلب ذاته .

المشكلة الكبرى هي ان الأمريكيين « كانوا يأملون ان يوافق على هذه الخطوة » . فعلى أي اساس جاءهم هذا الامل ؟ كيف تصوروا أنه سيقبل الاشتراك في عملية خداع الحكام الايرانيين ومعاملتهم كأنهم أطفال ؟ من أين جاء كل هذا الامل ، وكل هذا « العشم » ، في هيكل ؟ وكيف توقعوا منه ان يتجاوز مهمة الوساطة ويقوم بتمثيلية خداعة على الايرانيين باسم الاسلام ، اي ان يخاطبهم وفي نيته ان يغشهم ويستغل سذاجتهم لصالح امريكا ؟ وما هي نوع الروابط التي تربطه بهم حتى يطلبوا منه شيئا كهذا ؟

ان هيكل يستطيع ان يقول ، بالطبع ، انه ما دام قد نشر الرسالة فلا بد أنه كان حسن النية . ولكن الواقع انه لا يدرك ما يمكن ان تكشفه رسالة كهذه عن الطريقة التي ينظر بها الأمريكيون اليه فمن المستحيل ان تطلب امريكا من انسان عادي ـ مهما كانت مكانته ـ ان يعرض نفسه للأخطار من أجل أداء كل هذه الخدمات لصالحها . وحتى لو كانت امريكا قد اساءت التقدير ، وتصورت خطأ ان هيكل يمكن ان يقوم بهذا كله لحسابها . فإن لهذا الخطأ ذاته دلالته البالغة ، لأنهم لا يمكن ان يكشفوا اوراقهم على هذا النحو لاي شخص غير ملتصق بهم . ومن جهة اخرى فقد كان المفروض ، في حالة خطأ

امريكا ، ان يرد عليهم هيكل بشدة ، لا معتذرا فقط ، بل مستنكرا هذا الطلب بكل قوة . كان المفروض ان يرد عليهم ردا شديد العنف ، يقول فيه ، مثلا : هل تتصورون انكم تخاطبون شخصا يشتغل لحسابكم حتى تطلبوا مني شيئا كهذا ؟ وكيف تتخيلون انني سأقوم بعملية خداع واستخفاف بعقول أناس وضعوا ثقتهم فيّ ؟ ولكن هيكل لم يفعل ذلك ، والدليل على هذا هو أن كل ما انتقده على الامريكيين ، في تعليقه على رسالتهم ، هو « ابتعاد تفكيرهم عن الواقع » . والدليل الأهم على انه لم يستنكر ، ولم يوقف الأمريكيين عند حدهم ، هو انهم عادوا فبعثوا اليه برسائل اخرى .

ان هيكل لم يدرك النتائج الخطيرة للكلمات التي قالها ، وكل ما طاف بذهنه هو انه كان في هذه القصة رجلا مهما يسعى اليه وزير الخارجية الامريكي ويختاره شخصيا للتوسط بين دولتين ، احداهما اكبر واقوى دولة في العالم . وفي نشوة الاحساس بالسعادة الناتج عن الشعور باهميته ، لم ينتبه الى المعاني الواضحة التي يستطيع اي عقل على قدر ضئيل من الذكاء ان يستخلصها من روايته .

وفي ضوء هذه الاعترافات الخطيرة ، غير المقصودة ، التي ادلى بها هيكل ، الا يشعر المرء بالاشفاق حقا على الايرانيين الذين فتحوا له ابوابهم ، وأطلعوه على أخطر وثائق السفارة الأمريكية ، بعد أن خدعتهم شهرته المرتبطة بجمال عبد

الناصر ، ثم خرج هو من الزيارة بكتاب تضمّن كثيرا من السخرية من الايرانيين ، وربما خرج بما هو اكثر من ذلك ؟

انني ، إدراكا مني لحساسية هذا الموضوع عند هيكل ، حرصت على الا أستخدم نوع الالفاظ الذي يغضبه . ولكن الأهم من ذلك أنني لم آت بشيء من عندي ، وكل ما فعلته هو أنني تركت هيكل يدين هيكل .

الفصل العاشر

من الذي هدم الهيكل

الفصل العاشر

من الذي هدم الهيكل

ما نوع ردود الفعل التي يمكن توقعها ازاء بحث كهذا الذي كنت اقوم به طوال المقالات السابقة ؟ سأترك جانبا ردود الفعل الايجابية الممكنة ، وأركز حديثي على ردود الفعل السلبية .

ان هناك فئة غير قليلة من القراء تفكر على النحو الاتي : ما دام هيكل قد أساء الى السادات ، وما دام هذا الناقد (كاتب هذه السطور) قد استهدف كشف اخطاء هيكل ، اذن فنقده مفيد في الانتقام من هيكل لصالح سياسة السادات .

وهناك فئة اخرى ، ربما كانت اكثر عددا ، تنظر الى المسألة بالطريقة العكسية : بما ان هيكل قد فضح عهد السادات ، وهو عهد غير وطني ، اذن فلابد من الوقوف الى جانبه ، اما من يهاجم هيكل في الظروف الراهنة فانه يضعف الجبهة المعادية للسادات ، بعد ان كانت قد انتعشت بظهور كتاب هيكل . وواضح ان الاساس الذي يقوم عليه هذا النوع من التفكير هو مبدأ : عدو عدوي صديقي (عدوهم السادات وهيكل

عدوه) . وتبعا لهذا المبدأ يكون كاتب هذه السطور ، في انتقاده لهيكل ، هو في الواقع « عدو عدو عدوهم » ، أي عدو صديقهم ، اي عدوهم !

ومع اعتذاري للقاريء عن هذه الالغاز اللفظية الاخيرة ، فاني اجد في هاتين الطريقتين في الفهم لب الخطأ الذي احاول منذ البداية ان اقنع القاريء بألا يقع فيه . فموقفي ، كما قلت مرارا ، منصب على نقد جو فكري عام ، واسلوب كامل في النظر الى عملية الحكم ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وطريقة اتخاذ القرارات الحاسمة . وهذا الاسلوب اوسع نطاقا من اي فرد تحدثت عنه في هذا الموضوع او ذاك ، بحيث لا يمثل هيكل وكتابه الاخير الا حالة صارخة ، حادة ، قريبة العهد ، من حالات ظاهرة اقدم واوسع انتشارا واقوى رسوخا بكثير .

واذا كان الساداتيون ، الذي ينتمي اليهم اصحاب الرأي الاول ، قد قرأوا ما كتبت بامعان ، فسوف يدركون ان نقدي للعهد الساداتي ربما كان اشد حدة من نقد هيكل ، لانني ارجعت كثير من الظواهر الى جذورها الحقيقية ، ومن ثم فان اية محاولة يبذولونها للافادة مما كتبت هي ، كما قلت في مقالي الاول ، مرفوضة من اساسها .

اما اصحاب الرأي الثاني ، الذي يضم عناصر من الفئات الناصرية واليسارية والقومية ، فانهم يرتكبون خطأ جسيما حين

يستعينون ، من اجل دعم موقفهم ، بشخصيات مثل هيكل . ان الكثيرين منهم ، بالطبع ، يصفون موقفي بأنه نوع من المثالية التي تفتقر الى الحس العملي : انه بحث عن الصواب المطلق او الخطأ المطلق ، لايعرف كيف ينتهز الفرص السانحة ويستفيد من اي عنصر ـ بصرف النظر عن طبيعة هذا العنصر في ذاته ـ من اجل خدمة قضيته . هذا رد اتوقعه من الكثيرين ، بل اتوقع ما هو اشد منه : فمن هؤلاء من سيهاجمني بعنف ، مؤكدا ان هيكل الان يخوض معركة ضد المؤسسة الساداتية كلها ، ولابد من تأييده ومساندته ، لا اضعافه ومحاربته .

ولكن هذا المنطلق ، في رأيي ، مرفوض من اساسه . فالمسألة ليست على الاطلاق مثالية مفرطة في الابتعاد عن الواقع ، وانما هي ـ على عكس ذلك ـ موقف واقعي وعملي بكل معاني الكلمة . ذلك لاننا لن نستطيع ان نفهم العوامل المؤدية الى السقوط الذي وصلنا اليه ، في كافة جوانب حياتنا ، الا اذا حللنا بدقة اساليب التفكير والممارسة عند اولئك الذين تحكموا في مصائرنا طوال عشرات السنين ، وانتقدنا هذه الاساليب دون اية مهادنة . وحالة هيكل تقدم لنا نموذجا بارزا لهذه الاساليب ، وان كان يظل رغم كل شيء مجرد نموذج ، لا يهمنا الا بقدر ما يدل على المناخ السياسي والفكري العام الذي كان ينتمي اليه .

والواقع انني لا اجد ، من منظوري الخاص ، اية فائدة ترجى من التحالف مع شخصيات اعتادت التقلب مع عهود

الحكم ، بحيث لاندري ، اذا كانـت تتخـذ اليوم خطـا وطنيا (سنقدم له تفسـيرا فيما بعـد) ، اي خط ستتخـذه غدا . فاذا اضيفت الى ذلك حقيقة اهم من هذه ، وهي ان هيكل اسهـم بدور اساسي في ارساء دعائم الاتجاهات التي ينتقدها اليوم على السادات ، عندئذ يبدو التحالف معه امرا محفوفا بالخطر ، ويبدو انقلابـه الاخـير على السـادات موقفـا لا علاقـة له بالمبـادىء السياسية ، وانما هو في حقيقتـه ، ومهما انـكر هيكل ، انتقـام شخصي يلبس رداء الوطنية .

وفي غمرة الغضب الذي اجتاح هيكل ، خلالَ فترة اعتقاله القصيرة الامد ، نسي أشياء كثيرة ، ولـم يتذكر الا انـه يريد ان ينتقم ، وكان لديه بالطبع مخزون المعلومات الهائل الذي يضمن له انتقاما مدويا . وهكذا تحدث هيكل عن اخطاء السادات ، مدعمة بالوثائق التي تفضح اشياء كثيرة وخطـيرة ، كما لو كان مشاهـدا محـايدا ، ونسى الـدور الخـاص الـذي لعبـه في هذه الاخطاء . بل انه حـين تدفـق في سرد المعلومـات من مخزونـه الكبير ، نسى ان الكثير مما قاله له دلالات عكسية ، ويأتي بتنائج سلبية على الجميع ، سواء عليه هو ، اوعلى الحكام الذين عاش في عهدهم . ومرت عليه اشياء خطيرة انزلق اليها دون ان يدرك معانيها ، حتى ليشعر المرء ـ كما سنرى فيما بعد ـ ان غضبه قد سد عليه منافذ التفكير .

ولو كان هيكل متسقا مع نفسه ،لتمـالك غضبه وبدأ كتابه

بانتقاد نفسه . كان من واجبه تجاه ذاته ، وتجاه وطنه ، ان يقول : « لقد ايقظتني فترة السجن من غفوة طويلة . . . كنت على خطأ في كثير من مواقفي طوال الاعوام الثلاثين الماضية ، فكان اكبر اخطائي مساندتي القوية للسادات ودعمي لحكمه ، وهانذا اكفر عن اخطائي . . » لو كان هيكل قد بدأ بكلمات كهذه ، وصاغ كتابه في هذا الاطار ، لما تعرض لكلمة نقد واحدة مني او من غيري ، بل لصفقنا له جميعا ، اذ انه كان سيقدم الينا عندئذ عملا رائعا ، يكشف الحقائق المخفية ، ويلقي - بموضوعية - اضواء باهرة على اخطر مرحلة في التاريخ العربي المعاصر .

ولكن هذه امنية يستحيل ان تتحقق : اذ كيف تنزل الالهة من عليائها وتعترف بأخطائها ؟ ان هيكل يرى نفسه ارفع حتى على الرد على منتقديه ، فكيف نتوقع منه نقدا ذاتيا شاملا ؟ على رسله اذن ، وليتحمل نتيجة موقفه .

لقد كانت لدى هيكل حاسة سياسية مرهفة جعلته يتخذ حتى النهاية موقف المحامي عن عبد الناصر ، وبدرجة اقل ، عن عصر عبد الناصر ، رغم انه شارك بدور رئيسي في بذل الجهد الضخم الذي ادى الى القضاء على اهم مقومات العهد الناصري في ١٥ مايو ، وكان من دعامات التحول الحاسم الذي كان لابد ان يفضي في النهاية الى انهيار سياسة الحياد الايجابي ، والى الانحياز لامريكا ، بكل ما يعنيه ذلك من انضمام الى صف

اعداء الشعوب ومكافحي التحرر الوطني ، ومن تصالح وتطبيع مع اسرائيل ، ومن سيطرة للطبقات الطفيلية والبنوك الاجنبية . واذا كان هيكل قد انتقد هذه النتائج كلها بشدة في الآونة الاخيرة ، فان دعمه الحاسم للسادات ، الذي كان هيكل يعرف جيدا ميوله واتجاهاته واتصالاته ، كان لابد ان يؤدي الى نتائج كهذه في المدى البعيد .

ولقد اتاحت هذه الحاسة السياسية المرهفة ذاتها لهيكل ان يقفز من مركب السادات في الوقت المناسب ، ويدخل من اجل ذلك السجن فترة قصيرة . وكان دخوله السجن في الواقع اكبر « ضربة حظ » نالها في السنوات الاخيرة . فعندما اصدر « خريف الغضب » ، استطاع ان يكتسب لنفسه تأييد كل الساخطين على عصر الانفتاح ولصوص التموين والارتماء في احضان بيجن وتوصيل ماء النيل الى القدس وبيع آثار مصر ومواقعها التاريخية . . . تحول هذا كله الى رصيد لصالح هيكل ، واعترف هو نفسه بذلك حين قال في الفصل الاول من كتابه ، معلقا على مهاجمة السادات له : « حين يجعل رئيس الدولة من احد مواطنيه هدفا دائما لهجماته ، فهو بذلك يرفع من قدره ولا ينتقص منه . وبالتالي فلعلي لا اتجاوز اذا قلت انني على نحو ما مدين للرئيس السادات بما اضافه ـ دون ان يقصد ـ الى قيمتي في الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء » . وبصرف النظر عما يمكن ملاحظته بسهولة من ان تضخيم الذات

واضح في هذا الكلام ، فان الحقيقة الواقعة هي ان هيكل قد اصبح في نظر الكثيرين « بطلا » وطنيا ، واخذ الوطنيون الشرفاء يتبنون قضيته، اما عن كراهية للسادات تحتم التصفيق بلا تفكير لكل من يهاجمه ، واما عن عجز عن الربط بين حلقات التاريخ . وفي المقابل ، فان خصومه من الساداتيين اخذوا يهاجمونه بعنف ، مما جلب له مزيدا من الشعبية . وحين اتخذت الحكومة بعض الاجراءات القمعية ، بإصدار تشريع استثنائي آخر يمنع اي « مسئول » من الإفشاء باسرار كان مطلعا عليها ، تحول هيكل ، الذي طالما برر الحكم الفردي وصاغ له النظريات البارعة ، الى شهيد لحرية الرأي والديمقراطية المهدرة .

ان قصة هيكل مع الحرية والديمقراطية قصة طويلة ، ليس هنا مجال الكتابة عنها ، وكل ما نود ان نفعله هو ان نركز انتباه القارىء على جوانب معينة من الانتقادات التي وجهها ، مؤخرا ، الى السادات ، والتي وقف فيها يدافع بقوة عن هذه المبادىء السامية ، ثم نسأل انفسنا : هل كان هيكل ، في انتقاداته الاخيرة ، يدين السادات وحده ، ام يدين نفسه ايضا ، ويدين كل المناخ السياسي الذي كان يعمل فيه ؟

يتحدث هيكل في الفصل الخامس من كتابه عن الهدايا التي كان السادات يتلقاها فيقول : « وخلال سنوات عمله في المؤتمر الاسلامي كان السادات يتلقى الكثير من الهدايا في عالم يؤمن بالهدايا كوسيلة من وسائل توثيق الصلات . » فاذا تساءلنا : اي

عالم كان يقصد ؟ اتانا الجواب سريعا : « لكن الحق يقال انه كان كريما في تقديم الهدايا قدر كرم الآخرين في تقديمها له . لقد قدم انور السادات في تلك الفترة اكثر من سيارة « كاديلاك » كهدايا لعبد الحكيم عامر » اذن فالمقصود عالم اقطاب ثورة ٢٣ يوليو ، اولئك الثوار الذين استهدفوا تطهير مصر من « فساد » الاحزاب القديمة ، والذين يهدي احدهم الى الآخر بعضا مما انعم الله به عليه ، هو مجرد « سيارات » كاديلاك تقدم الى الرجل الثاني بين الثوريين ، الذي وضعه هيكل في الموضع نفسه بانه « كان في نفس الوقت اقرب اعضاء مجلس قيادة الثورة الى قلب جمال عبد الناصر » .

حسنا ، ان مثل هذه الاشياء تحدث في احسن « الثورات » ، ولكن الم تكن هذه الواقعة تستحق من هيكل تعليقا على النظام الذي سمح بهذا ، وجعل من الهدايا وسيلة لتوثيق الصلات ؟ هل هذه هي الدروس التي يقدمها فلاسفة الثورة للاجيال الجديدة ؟

ينتقد هيكل العهد الساداتي على كثير من ممارساته اللاديمقراطية ، وهو قطعا على حق في هذا القدر ، ولكنه لا يقدم اشارة واحدة الى الاطار التاريخي الذي ظهرت في ظله هذه الممارسات ، ويصورها كما لو كانت قد ابتدعت في عهد السادات .

فهو يعيب على السادات اصداره تشريعا يمنع الذين « افسدوا الحياة السياسية قبل الثورة او بعدها » من النشاط السياسي ، وينسى ان تشريعات كهذه كانت تصدر من آن لآخر طوال عهد الثورة ، كان اولها ما صدر في عام ١٩٥٣ تمهيدا لحل الاحزاب . وهكذا فان تشريع السادات حلقة في سلسلة طويلة من الاجراءات القمعية ضد التجربة الحزبية في مصر ، ولم يكن السادات في اجرائه هذا الا ابنا مخلصا للتراث الذي تربى سياسيا في ظله . ومادام هيكل قد وجد في التشريع الساداتي اجراء تعسفيا ـ وهو بالفعل كذلك ـ فلماذا سكت عن الاجراءات المماثلة السابقة ، بل لماذا ايدها ودعمها بتنظيراته ؟ هنا نرى هيكل واحدا ضمن سلسلة طويلة من رجال الثورة الذين كانوا يؤيدون الدكتاتورية وهم في الحكم ، ثم يتحولون بقدرة قادر الى ديمقراطيين متحمسين عندما يتم استبعادهم ، من امثال البغدادي وكمال الدين حسين وهويدي ، الخ . . .

وهو يسخر من تلاعب السادات في الدستور ، وتعديل المادة الخاصة برئاسة الجمهورية ، بحيث تتجدد مدة الرئاسة الى ما لانهاية . . . هل كانت هذه هي المرة الاولى التي حدث فيها ذلك ؟

بل انه يلاحظ في الفصول الاخيرة ، عن حق ، ان السادات كان لديه دستور لا بأس به ، ولكنه لم يكن يتقيد به . . . الم تكن هذه فرصة لنقد مبدأ التلاعب بالدستور بوجه عام ،

ولاعطاء القاريء درسا في اهمية الدساتير ووجوب احترامها في كل العهود ؟

وحين يسخر هيكل من استفتاءات السادات ، التي كانت نتائجها مضمونة مقدما ، والتي كان يلجأ اليها لاضفاء صبغة قانونية زائفة على اجراءات او تشريعات مخالفة بطبيعتها لروح القانون والدستور ـ فهل كان هيكل يهاجم مبدأ الاستفتاء ذاته ، ام كان يهاجمه فقط عندما طبقه خصمه السياسي ؟ الم يكن الاستفتاء مبدأ معمولاً به قبل عهد السادات بوقت غير قصير ؟

ومما يلفت النظر ان هيكل قد انتقد بشدة ، في كتابه الاخير ، طبيعة التنظيمات السياسية غير الشعبية التي تخلقها السلطة لدعم مركزها ، ويشير الى عيوبها بقوله : « لم تكن لدى حزب مصر ـ على سبيل المثال ـ ولا الحزب الوطني بعده ، من القوة السياسية الا ما اسبغه النظام بالسلطة عليهم ليكونوا واجهات يتستر وراءها الفعل الحقيقي . وكان اكثر من نصف اعضاء مجلس الشعب من هؤلاء الذين غيروا آراءهم مع تغيير الحكومة لسياساتها . كانوا اشتراكيين في الوقت الذي كان من الحكمة فيه ان يكونوا اعضاء في الاتحاد الاشتراكي العربي . واصبحوا رأسماليين عندما انفتحت الابواب لرأس المال الاجنبي . وكانوا اصدقاء للاتحاد السوفيتي حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا بسرعة ـ حين تغيرت الظروف ـ الى الصداقة مع الولايات المتحدة . وكانوا دعاة الحرب مع اسرائيل ، وبعد المبادرة

اصبحوا كلهم من دعاة السلام . »

هذا تشخيص سليم بغير شك ، ولكن هل ينطبق على اعضاء حزب مصر والحزب الوطني وحدهم ؟ الم ينتقل عدد كبير من الاعضاء قبل ذلك ، من هيئة التحرير الى الاتحاد القومي الى الاتحاد الاشتراكي ، رغم اختلاف المبادىء والاسس في كل حالة ؟ الم يكونوا بدورهم رأسماليين في البداية ، ثم اعلنوا ولاءهم للاشتراكية حين اصبحت سياسة رسمية ؟ ان جوهر نقد هيكل كان ينبغي ان ينصب على اسلوب الحكم الذي يفرض تنظيما شعبيا مقلوبا ، يسير نشاطه من القمة الى القاعدة ، على حين ان التنظيمات ، لكي تكون شعبية بحق ، لابد لها ان تبدا بالقاعدة وتنقل رغباتها ومطالبها الى القمة . ومثل هذا الاسلوب لم يبدأ فجأة في عهد السادات ، بل كانت له مقدمات طويلة .

اما الحديث عن اولئك الذين كانوا اصدقاء للاتحاد السوفيتي حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا عندما تغيرت الظروف الى الصداقة مع الامريكان ، فانه حديث جريء حقا ، وخاصة حين يصدر عن هيكل . وأرجح انه كتب هذا الجزء وهو جالس امام المرآة !

وحين وصف هيكل عملية اعتقاله وصفا دراميا مفصلا ، كان يتحدث في الواقع عن نقطة تحول هامة في حياته ، جعلته يتخذ قراره بان يتكلم . والامر المذهل حقا هو ان هذا الاعتقال

المخفف جدا ، سواء من حيث مدته او اسلوب معاملته في السجن ، لم يكن مما يمكن مقارنته على الاطلاق بما حدث لالوف الاشخاص من قبل ، ممن ذاقوا اشد الاهوال لمدد اطول كثيرا ، وفي ظروف اصعب الف مرة . ومع ذلك فان هيكل يصور حادثة اعتقاله كما لو كانت شيئا فريدا في نوعه ، ولم يحاول ان يعالجها ، ولو في سطر واحد ، بوصفها ظاهرة عامة ونتيجة ضرورية لاسلوب معين في الحكم .

وواقع الامر ان هيكل لم ينطق بحرف حين كانت الاعتقالات تحدث جزافا ، وتنتهي في حالات معينة بعاهات مستديمة للمعتقلين ، وربما بموتهم . لم يحركه امتهان كرامة الانسان او لجوء فئة معروفة من السجانين الى ممارسات غير آدمية ، عندما كان الانهيار قد حدث ، وكان النظام في حاجة الى ما يهديء مشاعر الشعب المجروح بالهزيمة عن طريق ممارسة محدودة للنقد الذاتي ، اما في ذروة ايام القمع فلم يحرك ساكنا .

ويقدم الينا هيكل اوصافا وتفاصيل طريفة عن احساس السادات بالعظمة وبأن الآخرين الى جواره « اقزام » ، وعن عزلته المتزايدة وتناقص عدد مستشاريه يوما بعد يوم . ولكنه يصف هذه الظاهرة كما لو كانت عيبا شخصيا في السادات . ولو تعمق في الامر قليلا لادرك ان اسلوب الحكم الفردي لابد ان يؤدي الى هذا النوع من جنون العظمة . فحين يمسك فرد واحد ، لمدة سنوات عديدة ، بسلطات هائلة في يديه ، وحين

يسمع كلمات الموافقة والطاعة من كل المحيطين به ، وحين تملأ صوره واخباره وكلماته اجهزة الاعلام صباح مساء ، وحين تتحول اية رغبة له الى واقع فعلي بمجرد ان ينطق بها ، وتتقرر المصائر والسياسات بكلمات من قلمه . . . حين يحدث ذلك كله لفرد واحد ، لابد ان ينتهي تكوينه النفسي الى عدم التوازن . وكم الذت كتب عن هذه الظاهرة في حالة عدد كبير من الحكام الفرديين . ومع ذلك فان هيكل يقدمها الينا كما لو كانت تعبيرا عن اختلال في شخص السادات كفرد ، ويتجاهل الجانب العام للظاهرة ، الذي يجعلها نتيجة ضرورية لانفراد انسان واحد بعدد هائل من السلطات .

ان القضية ليست قضية السادات وحده ، ولا عبد الناصر وحده ، بل قضية اسلوب الحكم الذي لا يستند الى تمثيل شعبي حقيقي ـ ذلك الاسلوب الذي ادركه هيكل في حالة السادات ، ولم يدركه قبل ذلك . والامر المؤسف هو انه كان واعيا به ، اذ كان هو قد نصح السادات ، بعد انتصاره في حركة التصحيح ، بان يحدث الناس في خطاب الى مجلس الامة عن قضية الديمقراطية ، لانها هي « القضية التي تهم الناس مباشرة في هذه الظروف . ان الناس يريدون ان يسمعوه وهو يؤكد لهم ضمانات حرياتهم . لقد افلتوا بالكاد من شبح دكتاتورية كان يمكن ان تصل في تجاوزاتها الى حد معين . »[1] اذن فقد كان هيكل يعلم ان الناس

(١) انظر الفصل الخامس من « خريف الغضب »

تواقه الى الديمقراطية ، وان الجناح الذي هزم ، والذي هو الملتصق بعبد الناصر والمنفذ لسياسته ، كان دكتاتوريا ، فهل حاول في ذلك الحين ان يدافع عن المبدأ الذي تحّول الآن الى داعية له ، ام ان الديمقراطية لاتجد من ينادي بها الا حين يكون الحكم في موقع الضعف ، بينما تسحق بالاقدام بمجرد احساسه بالقوة ؟

ان هيكل على العكس ن ذلك، طلع علينا ـ خلال فترات الشعور بالقوة ـ بنظرية « الديمقراطية بالموافقة » ، ويعني بها ان يكون الحاكم على وعي بمطالب الجماهير وامانيها ، فيحققها لها ، وعندئذ لابد ان يكون تصرفه ديمقراطيا ، لان الجماهير ستوافق حتما عليه ، ولانه تعبير صادق عما تريده الجماهير . ويدافع هيكل ، في حديث قريب ، عن هذه الفكرة ، مؤكدا انه لم يقلْ بها الا بعد ان اتخذت القرارات الكبرى المعبرة عن موافقة الشعب ، كتأميم قناة السويس والتطبيق الاشتراكي وبناء السد العالي ، الخ . . . ولم يدرك هيكل انه حتى هذه القرارت الكبرى ينبغي ان تسند ، قبل اتخاذها لا بعده ، الى ارادة شعبية ، اما لو اقتصر الامر على اتخاذها من اعلى ، فستظل معرضة للخطر . وهذه بالفعل كانت الغلطة الكبرى للعهد الناصري : فقد اتخذ بالفعل قرارات كبرى وحاسمة ، ولكنها لم تنبثق عن الشعب وانما اتت من اعلى ، وظلت معتمدة بقاء الزعيم الذي اوجدها ، فلما اختفى ، انهارت بعده وكأنها بيت من ورق .

وهكذا كانت نظرية « الديمقراطية بالموافقـة » بدعـة هيكلية ينكرها اي حس ديمقراطي سليم . بل اننا لا نعدو الصواب اذا قلنـا انهـا سلاح ذو حدين : إذ أن الســادات كان يؤكد ، من جانبه ، ان « ٩٩,٩ ٪ من شعبي يؤيدنـي في زيارة القـدس ، وفي الصلح والتطبيع مع اسرائيل ، ولا يعارضني في ذلك الا مجموعـة من الارذال ! . . » اتـرون الى اين يمـكن ان تؤدي بالشعب افكار خطيرة كالديمقراطية بالموافقة ؟

ان الحكم الفردي ، حتى لو بلغت انجازاته عنان السماء ، يظل معرضا للوقوع على الدوام في كوارث . وما كانـت كارثـة ١٩٦٧ ـ التي لم يعرض لها هيكل في كتابه الا بطريقة سريعة وفي مساحة تقل بكثير عما خصصه للحديث عن مسكن السادات او زوجات ابيه ـ ما كانت في حجمها وفي فداحتها الا نتاجا للحكم الفردي . والواقع ان مشكلة هذا الاسلـوب في الحـكم هي ان خطأ الفرد فيه يمتد الى امته بأسرها ، على حين ان تأثير الخطأ في الحكم الديمقراطي يكون أضيق نطاقـا بكثـير ، فضـلا عن ان احتمالاته اقل ، وامكانية اصلاحه اكبر . ومن هذا النـوع كان خطأ عبد الناصر في التقدير عام ١٩٦٧ ، وخطـأ السـادات في اسلوب التفـاوض بعـد حرب ١٩٧٣ ، وزيارتـه للقـدس عام ١٩٧٧ . انها كلها قرارت فردية لحاكم فرد ، معرض كسائر البشر للخطأ ، ولكن خطأه يتحـول ، بسبـب طبيعـة حكمـه ، الى كارثه .

وتلك كلها مسائل لم يحاول هيكل ان يتطرق لها ، بل عرض في الفصل الاخير من كتابه لاخطاء السادات كشخص ، ولم يتناول اسلوب الحكم الذي كان السادات احد مظاهره ومن هنا شاع التفاؤل في صفحات الكتاب الاخيرة ، ما دامت الشخصية « الشريرة » قد اختفت ، وحلت محلها شخصية ذات مزاج مختلف .

والآن فلقد كنت طوال حديثي السابق اتحدث بلسان المفكر السياسي او الاجتماعي ، ومع ذلك فانني لا استطيع ان اقاوم اغراء العودة ، في نهاية الحديث الطويل ، الى ممارسة مهنتي الاصلية : الفلسفة ! فحين تأملت مواقف هيكل واساليب تفكيره ، توصلت الى مجموعة من النقاط استطيع ان اطلق عليها اسم « مباديء الفلسفة الهيكلية » فما هي هذه المباديء ؟

المبدأ الاول : في البدء كان النسيان :

ان المتأمل لتقلبات هيكل وتغير مواقفه يستطيع ان يدرك بوضوح ان النسيان اساس ضروري يعتمد عليه هذا النوع من المفكرين من اجل اقناع الناس بآرائهم . ولقد ضربنا امثلة واضحة ، بل صارخة ، لتحولات جذرية طرأت على مواقف هيكل من القضايا المصيرية للامة العربية في ثلاث سنوات متعاقبة : ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ ، بحيث بدأ هذه السنوات بموقف راديكالي متشدد ، وانتهى ـ بعد تدرج مرسوم بعناية ـ الى

موقف شديد الاعتدال ، وانعكس اتجاه تأييده المعلن ، من الاتحاد السوفيتي الى الولايات المتحدة ، واختلف تصوره للحرب المنتظره ، الخ . . . مثل هذه التحولات الجذرية لا يمكن ان يجرؤ احد على تقديمها الى الناس في سنوات متعاقبة كهذه الا اذا كان واثقا من ان الناس سرعان ما ينسون ، وانك اذا كررت موقفك الجديد والححت عليه بما فيه الكفاية ، فلن يعود في ذهنهم سواه ، ولن يحاسبك احد على ما قلت من قبل .

انها عقلية تحتقر ذكاء الجماهير وتفترض انها تعيش ، وتفكر ، يوما بيوم ، وتتصور ان كل ما يحتاج اليه السياسي هو ان يكرر الاكذوبة لكي تصبح حقيقة . ولو تصور احد ان الكاتب نفسه هو الذي ينسى مواقفه السابقة ، وليس الجمهور ، لكان في ذلك مخطئا اشد الخطأ . فمثل هؤلاء الكتاب ، ومعهم الحكام الذين يعملون هم لحسابهم ، يتذكرون كل شيء ، ولكنهم يؤمنون بأنهم هم وحدهم الاذكياء ، ويسلمون تسليما كاملا بغباء الآخرين . وفي هذا المبدأ نستطيع ان نفسر جرأة هيكل على اتخاذ عدد كبير من المواقف التي كانت متعارضة فيما بينها تعارضا شديدا . اذ بدأ برفض التجربة الحزبية ، وأيد عبد الناصر بكل قوة ولم يقل شيئا عن ممارساته القمعية ، ثم شارك في تحطيم اقرب اعوان عبد الناصر ، ومهد الطريق بكل ما يملك من قوة لعهد هدم كل الاسس التي قامت عليها سياسة عبد الناصر ، وساند حياد عبد الناصر الايجابي ، وتوجهه التالي نحو

السوفيت ، ثم توجه السادات نحو امريكا ، ثم عاد اخيرا يتباكى على ايام التوازن الاستراتيجي بين السوفيت والامريكان ، ومشى مهللا ومصفقا في جنازة الديمقراطية في النصف الاول من الخمسينات ، وشارك في تحديد وتبرير الاتجاهات الرئيسية للحكم الفردي ، ثم بكى لوعة على الديمقراطية الضائعة في آخر عهد السادات ، ورفع السادات في اول عهده الى عنان السماء ، ثم اتضح لنا اخيرا انه كان يعرف عن طفولة السادات وشبابه وكهولته معلومات مشينه مخجله . .

اكان في استطاعة اي انسان ان يتقلب بين هذه المواقف لو لم يكن يرتكز على مبدأ اساس ، هو ان الانسان حيوان ناسٍ ، وان فقدان الذاكرة صفة مشتركة بين جميع البشر ، وان عقول الناس تعمل يوما بيوم ، ولا تربط الماضي بالحاضر ، او الامس باليوم ، وانه هو وحده الذكي ، « الفهلوي » ، الذي يستطيع ان يغير مواقفه دون ان يتنبه لذلك احد ؟

المبدأ الثاني : ديمقراطية « انا وحدي » :

في حديث قريب العهد لهيكل[٢] ، يتحدث ببطولة عن موقف حازم وقفه ضد وزير طالبه بان يعرض مقالاته على الرقابة قبل ثلاثة ايام من نشرها ، فرفض هيكل بشدة ، وارسل اليه

---

(٢) حديث مع صلاح عيسى ـ الاهالي ، ١/٦/١٩٨٣ .

يقول : « انني لا استطيع ان اكتب وفي ضميري ان ورائي من سوف يجري بقلمه على ما اكتب » . . . ثم يقول : « انني لم اكتب بانتظام ، وتحت عنوان : بصراحة ، الا بناء على اتفاق مع الرئيس عبد الناصر الا يخضع شيء مما اكتبه للرقابة » .

موقف رائع ، بطولي ، اليس كذلك ؟ ومع ذلك فان دلالات هذا الموقف محزنة ومؤسفة ، والمؤلم حقا ان هيكل يتحدث عن هذا الموقف في معرض التفاخر ، ودون ان يلمح من ورائه شيئا آخر . ان هيكل هنا يجعل نفسه فئة قائمة بذاتها ، فئة مستثناه . فجميع الكتاب الآخرين يخضعون للرقابة ، اما هو فقد اتفق مع عبد الناصر على ان يكتب بلا رقيب . واعجب ما في الامر انه على وعي بالاختناق الذي يصيب الكاتب من جراء الرقابة ، ويدرك بوضوح كيف ان قلم الرقيب يشل ضمير الكاتب ، ومع ذلك فانه لم يحاول ان يعالج القضية بالنسبة الى الجميع ، او يكتب الى المسئولين منتقدا « مبدأ » الرقابة ، وانما كتب يقول : لابد ان انال حريتي . . . انا وحدي ! وتكتمل المأساة حين يصور هذا الموقف كما لو كان بطولة عظيمة ، وتنشره الصحيفة المعارضة دون ان تعلق عليه او تستخلص دلالاته . . .

ولقد اثبت هيكل في مواقف اخرى كثيرة ان يقف بحزم ضد التصرفات الاستبدادية عندما تمسه شخصيا ، او تمس المقربين منه ، ويتمسك « بالاعفاء الشخصي » من تجاوزات الحكام ،

ولكنه لا يحاول الدفاع عن « المبدأ » نفسه ، او ان « يحب لاخيه ما يحبه لنفسه » ، كما تقول النصيحة المشهورة . فحقوق الآخرين لا اهمية لها مادام حقه الخاص مكفولا ، واذا حلت مشكلته الشخصية ، مع اجهزة قمع الحريات ، فان كل شيء يصبح على ما يرام . . . هذا ، في نظر هيكل ، هو الوضع الطبيعي ، اما ما يتجاوز ذلك فلا يهمه في شيء .

هكذا تصرف هيكل من واقعة اخرى ورد ذكرها في مقال سابق ، هي واقعة اعتقال اجهزة عبد الناصر لزميل له في « الاهرام » ، فقد ثار ثورة فردية ، لان الموضوع مس كرامته وسلامة المقربين منه ، اما المبدأ العام ، مبدأ عدم جواز اعتقال البشر بلا سبب ، وبلا محاكمة ، فلم يتطرق اليه من قريب او بعيد .

ومثل هذا ينطبق على موقفه من اعتقاله في آخر ايام السادات : فقد تحدث عن « محنته » الشخصية ولم يذكّره السجن بألوف الضحايا الذين سجنوا قبله في « جرائم » الرأي او العقيدة ، فلم يقل كلمة واحدة عن مساويء الاعتقال بوجه عام ، ولم يسهم برأي واحد من أجل ضمان الحريات الشخصية للجميع على حد سواء .

وعلى العكس من ذلك ، فان هيكل اكتسب جزءا كبيرا من مجده بفضل هذه الديمقراطية التي كان يتمتع بها وحده ، في

الوقت الذي يختنق فيه الآخرون . وكم من آراء كان يعرضها ، طوال الوقت الذي كان فيه هو وحده المتحرر من الرقابة ، كان من الممكن نقدها وتفنيدها وهدمها بسهولة تامة ، لو اتيحت فرصة مماثلة للكتاب المعارضين وكم من « نظرية » جاءت بها قريحته ، أو « تبرير » من نتاج عبقريته ، كان من الممكن اثبات تفاهته بيسر لو كان الناس قادرين على المناقشة الحرة . غير انه ظل وحده في الميدان ، مستمتعا بانتصاره على خصم مغلول الايدي ، وظل يغزو عقول الناس صباح كل جمعة ، دون منافس او معترض . والحق ان اي مفكر حقيقي يستحيل ان يقبل لنفسه هذا الاحتكار الفكري ، او ان يخطو خطوة واحدة في حلبة هذا الصراع غير المتكافىء : فهو لايرضي لنفسه بان يعلو صوته بينما الاصوات الاخرى مكتومة ، او بان يتفلسف شاهرا سيفه على افواه مكممه والسنة مربوطة . ومجرد قبول هيكل بهذا الوضع ، واصراره على ان يحقق لنفسه ، هو وحده ، مثل هذه الحقوق الديمقراطية ، يدل على انه في صميمه بعيد كل البعد عن الديمقراطية .

ايريد القاريء مثلا آخر ، قبل ان ننتقل الى النقطة التالية ؟ ان هيكل يشير ، في الفصل الخامس ، وفي معرض التفاخر كما هي العادة ، الى ان عبد الناصر كان يبدأ دائما بسؤاله عن رايه في الموضوع الذي يناقش ، لانه كان يتكلم بغير حرج ، « وكان يشك في ان بعض الاخرين عادة يحومون حول الموضوع حتى

يتعرفوا على رأيه (راي عبد النـاصر) فيه ، ثم يسبقـوه الى ما يتصورون انه يريده » .

هذه هي النتيجة المأساوية للدكتاتورية : الخوف ، النفاق ، تملـق الـزعيم والاستجابـة لرغباتـه بدلا من تحقيق مصلحـة المجتمع ، الامتناع عن المعارضة ـ وفي مقابلها ذلك ، شجاعة المتكلم الاوحد ، الذي يستـطيع هو وحـده ان يتكلـم « بغـير حرج » . هل هذا اسلوب في الحكم يمكن ان يقيم ثورة او يبني مستقبلا او يكون رجالا ؟

ومع ذلك فان الموضوع يمر على هيكل ، كما هي العـادة ، دون ان يتنبه الى ان ما يعتقد انه سبب للفخر ، هو في الحقيقة امر مؤسف ومخجل . فهل من تعليل لعدم التنبه الدائم هذا ؟ انـه بالقطع ليس نقصا في القدرة على الفهم والتحليل ، وانما هو ، ببساطة ، اعتياد على العيش في جو الحكم الفردي والاستمتـاع بمزاياه الشخصية ، يؤدي في النهاية الى ان تصبح اكثر جوانـب السلوك بشاعة امورا عادية ، مألوفة ، ليس فيها أي خطأ . . .

المبدأ الثالث : الوطنية بأثر رجعي :

اسهل انواع الكفاح واقلها تكلفة هو ان تكافح بعد فوات الاوان ، بينما تظل متفرجا ، او تتواطأ ، عندما تكون الاحداث ساخنة ، يمكن التأثير عليها وتغييرها الى الافضل . فبهذا اللون

من الكفاح بعد فوات الاوان ، تبـدو امـام النـاس وطنيا ، مع العلم انك لم تفعل شيئا .

وفي حالة هيكل لم يقتصر الامر على الكفاح باثر رجعي ضد سياسات كان اثناء حدوثها متفرجا ، بل انه كافـح بعـد فوات الاوان ضد سياسات كان هو نفسه قد اسهـم بنصيب كبـير في صنعها . ومثل هذا الكفاح ليس سهلا قليل التكلفة فحسب ، بل هو ايضا كفاح خادع ، اذا شئت ان استخدم اخف الالفاظ .

وسنضرب لهذا الاسلوب في الكفاح ، وفي اظهار الوطنية ، بضعة امثلة قد لاتحتاج الى شرح مفصل ، لانها سبق ان عرضت بتوسع من قبـل . فكل ما يقولـه هيكل الآن عن الافتقـار الى الديمقراطية وانتهاك الدستور والقوانين الاستثنائية ، الـخ . . . هو كفـاح بأثـر رجعـي ، لانـه لم يكن يدعـو اليه في الوقـت المناسب ، بل نادى به ـ فقط ـ بعد ان كان كل شيء قد انتهى . وكما رأينا من قبل ، فقد كان لهيكل دور هام في تهيئة الاذهان لطرد الخبراء السوفيت والتشكيك في قيمة اسلحتهم ، وكذلك في الدعوة الى تحييد امريكا . وبعد ان تحقق ما كان يدعو اليه ، ثم استخلص النظام الحاكم نتائجه الـطبيعية منـه ، عاد هيكل فنعى على السادات تعاونه مع الامريكان وتجاهله للسوفيت . . . ومتى حدث ذلك ؟ بعد ان اصبح اصـلاح الامـر مسـتحيلا ، وفرض الامر الواقع الجديد نفسه على الجميع . امـا في الوقـت الذي كان من الممكن فيه تدراك الامر ، فان كتابته كانت تسير في

الإتجاه العكسي .

وبالمثل ، فان حملته الراهنة على ادارة حرب اكتوبر سياسيا ، وعـدم تطويرهـا عسـكريا ، وافشـاء سر الحـرب المحـدودة الى الامريكان ، كل هذه وطنية بأثر رجعي ، لان الاحداث انتهت منذ زمن بعيد ، اما في الوقت الذي كان يمكن فيه التأثير في مجرى تلك الاحداث ، فقد كان هيكل يدعو بكل صراحة الى الحرب المحدودة ، والى التفاهم مع الامريكان .

واخيرا ، فان نقده للاتجاهات التسلطية ايام عبد الناصر لم يصبح مسموعا الا ايام السادات ، بعد ان اصبحت مراكز القوى في حالة دفاع عن النفس . اما عندما كان هؤلاء الجبابرة يسومون الناس عذابا ، ويعتقلون الآلاف بلا محاكمة ، فلـم نسمـع له صوتا . وهكذا تأتي البطولة دائما متأخرة ، ويظل هيكل مشاركا في الخطأ اثناء حدوثه ، ثم يستنكره بعد فوات اوانـه من اجـل كسب النقـاط ورفـع الاسهـم وزيادة رصيد الـوطنية على غـير اساس .

كلمة اخيرة :

اكاد ، في لحظتي هذه ، اسمع احتجاج القاريء ، وخاصة لو كان شابا ، وهو يقول : لقد هدمت كل مقدساتنا ، ولم تترك الا حطاما ، وشككت الناس في كل شيء وكل شخص ، ولم تقدم بديلا ايجابيا .

وردي على هؤلاء هو انني لم استهدف، كما قلت مرارا ، اي شخص بعينه ، وسيكون قد اساء فهم مقصدي كل من يتصور انني اريد ان اهدم اسطورة هيكل او كشف عيوب هذا الحاكم او ذاك . فهذه نتائج يمكن ان تأتي بطريقة عرضية او هامشية . اما الهدف الاصلي الذي كنت اسعى اليه فهو ان احث قرائي على ان يفكروا فيما يرونه حولهم بوعي وتبصر . ولا بأس خلال ذلك ان تتزعزع مقدسات كثيرة ، فأول مراحل العقيدة الصحيحة هي تحطيم الاصنام . ولا بأس من جريمة كبيرة من النقد والتشكك في عصر اصبحنا فيه ممنوعين من اي اعتراض او احتجاج .

ان هدفي الحقيقي ليس هيكل ولا السادات ولا عبد الناصر ، بل هو عقولكم انتم . فمن هذه العقول تأتي الهزيمة او النصر .

ولقد كتبت هذه الصفحات كلها في ايام قليلة ، بعد نشر كتاب هيكل مباشرة وكنت طوال كتابتها اعجب لحماستي التي تتدفق وكأنني اريد أن أسوي حسابا طويلا قديما ، بل ان بعض القراء تصوروا بالفعل ان بيني وبين هيكل ثأرا خاصا ، وذلك جريا على عادتنا في تفسير كل شيء بعوامل شخصيته .

وحقيقة الامر هي ان هناك بالفعل حسابا اردت ان اسويه ، ولكن ليس مع هيكل او اي شخص آخر بعينه ، بل مع اسلوب في الحكم وفي التفكير وفي معاملة الانسان للانسان كنت ارفضه على الدوام .

كان يكفي ان اسير في شوارع القاهـرة كل صيف ، وارى الفارق بين قاهرتي الجميلة التي شهدتها في طفولتي وصبـاي ، وقاهرة اليوم التي خربت بأكثر مما يستطيع عدو مجنون ان يفعل بها . .

كان يكفي ان اقارن بين تعليمي في طفولتي والقشور التـي يتلقاها اطفال اليوم باقل الاساليب امانة واخلاصا . . .

كان يكفي ان اتأمل تعاسة ابناء وطنـي حـين يبحثـون عن العلاج ، اوعن مسكن ، اوعن وسيلة اتصال . . .

كان يكفي ان اتأمل انهيار آمالنا الوطنية والقومية ، منذ ان صعدت لتناطح اقدم امبراطوريات الارض ، حتى هبطت الى حضيض « إزالة آثار العدوان » بعد ان اصابتنا هزيمة نكراء على يد دولة عميلة هزيلة يسكنها خليط لا يزيد مجموعة عن سكان بلدة متوسطة في وطني . . .

كان يكفي ان ارى طائرات العدو تمرح فوق سماء بغداد ، وجيوشه تصول وتجول في شوارع بيروت . .

كان يكفـي ان أتأمـل هذا كلـه لكي اتسـاءل : ما الـذي حدث ؟ ولـكي اجـد نفسي مدفوعـا بقـوة عارمـة الى تســوية الحساب ، لا مع هيكل بالذات ، بل مع كل القيم واسـاليب الفكر والحياة التي كان يجسدها ويبررها . . .

الناشر
شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع
ص . ب (٢٤٢٦٧) ت ٢٥٥٣٤٨٩ ـ ٢٥٥٥٩٦٨
الكويت
٨ / ١٩٨٣ / ٨ / ٤٠٠٠

يطلب من

دار الجليل

دمشق ـ ص . ب . ٤٦٤٨

هاتف ٤٥٤٣٣٩

الثمن ٢٠ ل.س